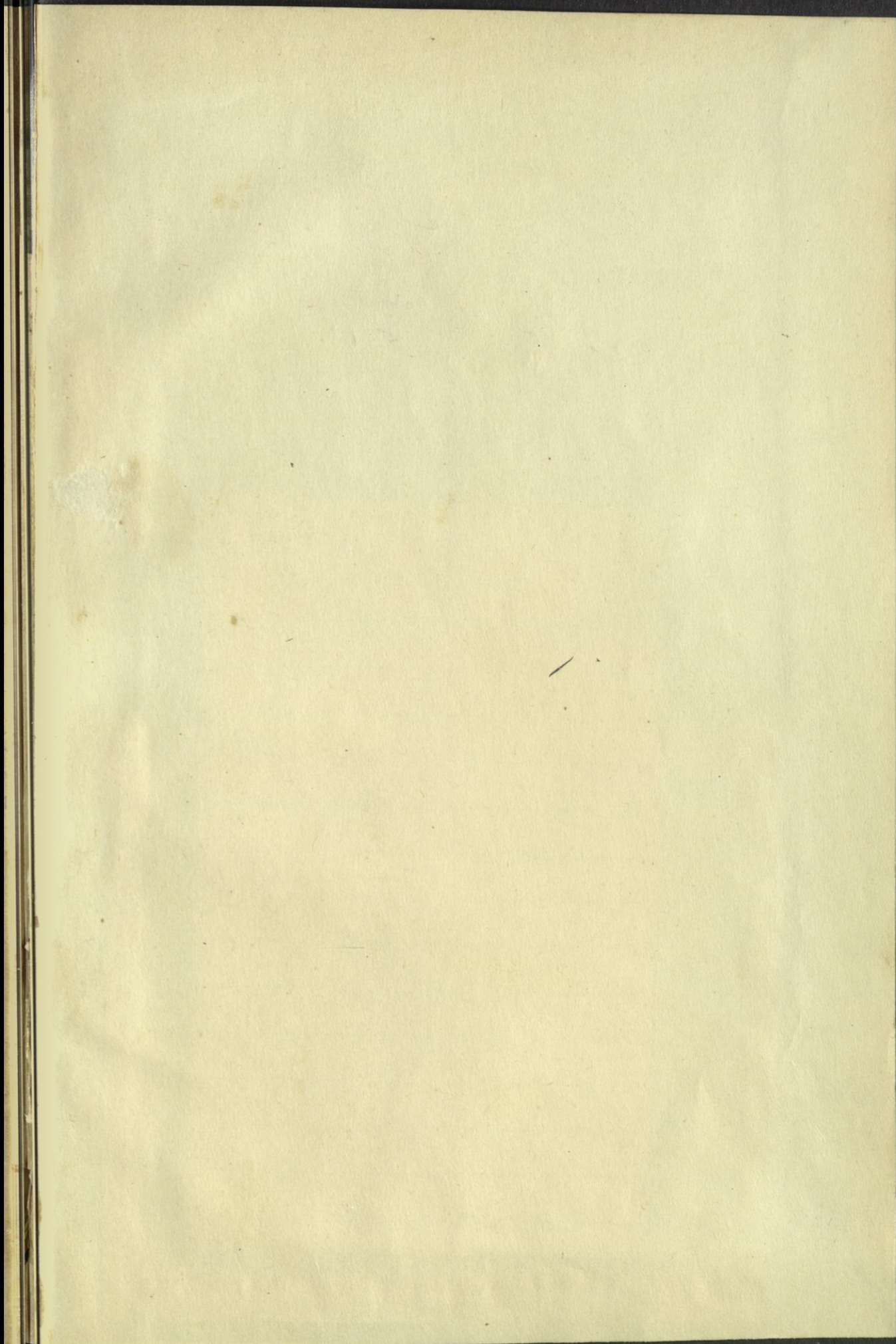


مجلد كتب  
صالح الدقر

~~██████████~~ C.1  
لوبيون، عوستافه  
روح الاحتجاج  
O

~~██████████~~  
~~DF 12~~  
~~APR 25 1957~~  
~~MAY 17 1958~~  
~~MAY 1960~~  
~~MAY 1961~~  
~~NOV 14 1961~~  
~~██████████~~  
1 - Feb 67  
~~1 - Feb 66~~  
1 - FEB 1972  
J. Lib.  
~~10 OCT 1975~~  
J. Lib.  
29 OCT 1983  
30 APR 1955  
J. Lib.  
23 FEB 1959





301  
L447p2A  
1909  
C.1

# روح الأحياء

## عنايته

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمته من اللغة الفرنسية

### أحمد بن زغلول باشا

وكيل وزارة الحفانية

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

28859

### خليل صادق

صاحب مجلة مسائل الشعب

مطبعة الشعب لبيروت محمد علي مصطفى

East March 1929

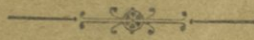
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله  
قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنسي الدكتور جوستاف لوبون  
صاحب كتاب « تمدن العرب » وضعه في بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد  
مجتمعا من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه  
« روح الاجتماع » ورأيت في نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف  
في ذلك فتفضل بالأجازه

طلب مني أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين  
طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء  
أنفسهم وإذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلاً صادقاً صحيحاً فان معانيه  
تنساب في نفس قارئه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ما

احمد فتحى زغلول

القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٠٩



❦ اهداء الكتاب من المؤلف ❦

الى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية واستاذ علم النفس في المدرسة القرنساوية  
علامة مودة

جوستاف لوبون

## مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحت في

الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد في افراده بالتوارث  
لكن اذا اجتمع عدد من اولئك الافراد للقيام بعمل من الاعمال تولدت عن  
اجتماعهم هذا احوال نفسية جديدة تتركز على احوال للشعب وقد تختلف عنها  
في كثير من الاوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير في حياة الامم الا ان هذا التأثير  
لم يبلغ في زمن من الازمان مبلغه في الزمن الحاضر فقد حل في أيامنا هذه تأثير  
الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الافراد المقصود لأربابه بالطبيعة وأصبح  
من أخص صفات الحياة الحاضرة

وانى أحاول البحت في موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضنة  
أعنى انى أريد ان اتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء  
والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الامور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو  
الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة ولا سيما اذا كان الموضوع مما  
يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الامور  
لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح - قال عنى أحد  
كبار المفكرين وهو موسيو « جويليه دالفيالا » في كتاب نشرناه حديثاً انى  
كثيراً ماخالفت في نتائج ابحاثى ما اتفق عليه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية  
لانى لست تابعاً لواحد منها وانى لأرجو ان يكون حظ كتابى هذا من تلك  
الملاحظة حظ سابقه اذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه  
من الأوهام



على انى أرى من الواجب ان أوضح للقراء السبب فى اننى استخلص من بحتى نتائج تخالف التى يظهر بادىء بدء انها تتأججه اللازمة كتقريرى مثلاً انحطاط القوة المفكرة عند الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتنى دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء فليس فى يدنا أن نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق ان تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً إلا ان ذلك لا يكون تابعا لأرادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للإصلاحات السكلية من أسوأ المؤثرات فى الامم مهما دلّ النظر على حسنها لأنها لا تكون مفيدة إلا اذا كان فى الامكان تغيير روح الأمة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الافكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فىنا وحينئذ ليست القوانين والنظامات الا صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم أنه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الامم التى ظهرت تلك الاحوال فيها لأنه ان صح نظراً أن لهذه الاحوال قيمة مطلقة فمن المحقق أن قيمتها عملاً نسبية دائماً

لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع أن ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلي للباحث أن تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة إلا يسيراً انظر الى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً لكنها قد تحضر أمام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً أو مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطأ مستقيماً ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك

الصور الحقيقية لأنها هي التي تترأى أمامنا وهي التي يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصوري حقيقي أكثر من الحقيقي في بعض الاحوال لأن تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسائية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم الا رسم الاشياء أو نقلها بآلة التصوير من دون أن يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية في اذهانهم على أن معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعنى العلماء لا يفيد الا فائدة صغيرة جداً

اذن وجب على الحكيم الذي يبحث في الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الأولى هي التي لها شيء من الأهمية في تطور المذنيات وملاحظة ذلك تقتضى الحيطه والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقي بادىء بدء

وهناك أسباب أخرى تدعو الى هذا الحذر منها أن الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر أن الأولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو في الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التي تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتي من الاعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً غير أن لها أعمالاً أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً أو طبيعة أو يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان ( صوت من في القبور ) وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً ما يظهر أن في باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لا تجد شيئاً أكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً واجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشيء الغريب في نظامه العجيب في أسلوبه الا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقى

النحويين انما يجهدون النفس في تدوين قواعد اللغات وهم لا شك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من أن الافكار السامية التي يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هي عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها ولكن لا ينبغي أن ننسى أن ذرات التراب التي تراكت فصارت منبتاً لتلك الافكار انما كونتها روح الجماعات التي وجد اولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو السر في قوتها على أنا نشاهد في الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الألهام تأتي بأعمال دقيقة يحار الانسان في معرفة جليل صنعها ذلك أن العقل جديد في الوجود الانساني وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها في مكانها ان نصيب اللاشعور في جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والاول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة في معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم في أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التي تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبني على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً في غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التي نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلاً

القصص  
١٢٠  
١٢١

## تمهيد

## زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى — فى أن تغيرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار  
الامم — اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات — فى أن هذا الاعتقاد يحول  
الدول عن سياستها التقليدية — كيف تسود سلطة طبقات الامة وكيف تجرى  
تلك السلطة — النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات — فى أن الجماعات لا تستطيع الا  
الهدم — فى أنها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها — فى الجهل العام  
بأحوال الجماعات النفسية — أهمية الوقوف على تلك الأحوال عند الشارع والسياسى

يخال الناظر فى أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور  
المدنية فى الامم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن  
تطور سياسى عظيم كأغارة الامم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة  
وهكذا لكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة  
فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغيير الكلى فى أفكار تلك الامم فليست التقلبات  
السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمتها وعنقها وانما  
الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيير حال الامم المدنية  
يحصل فى الأفكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون  
التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغيير خفى فى أفكار الناس واذا كانت تلك  
الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى أن أشد اخلاق الامم رسوخا  
عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آباؤها

وأخرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان اصليان

✓ الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تتكون منها

عناصر المدنية الحاضرة

✓ والثاني قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة في الحياة تولدت كلها

من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت الافكار التي ستحل

محلها في دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر أن نتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش

كما اننا لا نعرف حتى الآن على أي الافكار الأساسية والمبادئ الاولية يقوم

بناء الامم التي تخلفنا ولكن الذي نراه منذ الساعة انه سيكون أمام تلك الامم

قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لأنها اكبر قوة وجدت أريد بها قوة

الجماعات تلك القوة التي قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التي

كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد أن حطمت الثورات المختلفة

كل سلطة كانت تتحكم في الناس وهي القوة التي يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع

ما عداها في القريب العاجل ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن

آساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتخطم وان سلطة الجماعات هي

وحدها التي لا يهددها طارئ بل هي تعظم وتنمو وعليه فالدور الذي نحن

قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر في الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية

للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأي الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة

أصلاً في الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هي التي أصبحت لا وزن لها

ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو

الذي يرسم للملوك خطتهم وهو الذي يجتهد الملوك في الاصفاء اليه وأمسى

مصير الأمم راجعاً الى ما تحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه اصحاب

مشورة الامراء









## الفرد بالبحث في عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وراسوا الأمم والممالك ممن شرعوا  
الاديان وأسسوا الدول ورسل المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء  
العشائر الصغيرة كانوا دائماً من علماء النفس وهم لا يشعرون فكانوا يعرفون روح  
الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة في أغلب الاحيان ومعرفتهم  
لذلك جيداً هي التي مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة بأحوال  
الجماعات النفسية في البلاد التي انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات  
في شعوب آخر كذلك كان شأن أ كبر مستشاريه فانهم أيضاً لم يفقهوا حقيقة  
حال الجماعات الاجنبية عن أممهم فقد كتب له ( تايلران ) ان اسبانيا تلاقي جيوشه  
لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه  
كان على شيء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا  
الاستقبال . ذلك هو السبب في ان نابليون قام في بلاد الاسبان وفي بلاد روسيا  
على الاخص بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم اخر ملجأ يأوى اليه السياسي العظيم لا  
لاجل أن يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها  
وإذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات في الجماعات فانما السبيل  
الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية وبذلك تفقه  
ايضاً انه لا قدرة لها على تكوين رأى او التفكير في شيء خارج عن الدائرة التي  
رسمت لها وانها لا تقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير  
فيها واختلابها فلو اراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه ان لا يختار التي  
هي اقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد في ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل  
اكثرها قبولاً بالفعل عند الناس فان كانت هذه الاخيرة ايضاً اقل وضوحاً وأخف  
حملاً في الظاهر كان ذلك ادعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى  
الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على أقسام صغيرة عند شراء

حاجاتهم اليومية فهي لا تضيق عليهم فيما القوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير محمود فاذا بدلت هذه الضريبة بضريبة الايراد أو الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت أصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لأن مبلغاً ذا قيمة ظاهرة حل محل فاس يدفع بالتدريج يوماً بعد يوم ووجب ادأؤه دفعة واحدة وفي ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو أنهم اقتصدوه درهما الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله ولكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضى شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثال الذي قدمناه من أسهل الامثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة وهو لم يغيب عن متفرس مثل نابليون لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لأن التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون أبداً على مقتضى قواعد العقل

#### وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التي ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاماً عدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين في حينه ان السبب في كون أكبر مؤرخي الأعصر الحاضرة وأغنى به المنيو (تاين) لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث في روح الجماعات بل استرشد في الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التي هي تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الا شذوذاً مع ان تلك القوى هي التي تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من ذلك جانبها العملي أو الرغبة في مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه أسباب الافعال التي تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الفراس

سيكون كلامنا في روح الاجتماع موجزاً بمعنى أنه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارئ منه الا بعض افكار ترشد الى غيرها ولغيرنا أن يوغل في

الموضوع أما نحن فانما نخططه على أرض لا تزال عذراء (١)

(١) قلت ان القليل من العلماء الذين بحثوا في علم روح الجماعات قصروا بحجهم على الجهة الجنائية منها أما أنا فلم اخصص لهذه الجهة الا فصلاً صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء الى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التي سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على أن ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم وسأشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهناك تبين أهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على أن تلك القواعد تنطبق على موضوعات آخر تخالف الموضوع الذي نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ما شاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقي بمدينة بروكسل في رسالة كتبها على الموسيقي وسماها اسماً جديراً باسمه وهو (فن الجماعات) وبعث الى بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعداني على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلاً وهي قابلية الجماعات قابلية عجيبة لدوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة وطنية أو أجنبية بسيطة أو مركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت في رسالته ان القطعة الموسيقية قد لا يذوقها اشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة في كسر بيتهم ويدركها لأول وهلة سامعون ليس لهم أدنى الملم بقواعد الفن وأصوله

# الباب الأول

روح الجماعات

## لفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفساني

ما الجماعة عند علماء النفس — في أن مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لا يكفي لتكوين جماعة — (في اتحاد وجهة أفكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم) — في أن الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور — ازواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية — انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً — في أن ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو اردأ منه في الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم — سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف السيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا أو أنثىً وعلى أى نحو اجتمعوا املأ في علم النفس فلها معنى آخر ففي بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتيبة بالضرورة الا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيماً مخصوصاً لم أجد

لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية فكان ذلك الليف  
ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لنا موسى الوحدة الفكرية الذي تخضع  
الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثيرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة  
المنظمة وإن الف نفس اجتمعوا عرضاً في رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون  
جماعة عند علماء النفس بل لا بد في توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات  
مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم أن اختفاء الذات الشاعرة واتجاه الشاعر والافكار نحو غرض واحد وهما  
الصفتان الاوليان للجماعة أبان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود أشخاص عديدين  
في مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون  
إذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بمحدث جال كفاجعة عامة في الامة فإن اجتمعوا  
اتفاقاً وهم تحت ذلك التأثير ليست أعمالهم ثوب أعمال الجماعات لساعتها وقد  
تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا  
اتفاقاً وقد تصير الامة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع  
عليها كلها أثر واحد

وهي تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة  
يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف  
العناصر التي تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من  
القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الكلام على  
هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التي تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التي تتألف  
من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل  
قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغي أن نأتي على بيان الصفات العامة

لتكون حذوناً حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولاً الخواص التي تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التي تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة في تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقاً لأن نظامها يختلف أولاً باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التي تقع على الجمعيات المذكورة غير أن هذه الصعوبة حاصلة عند البحث في نفس الفرد الواحد لأن الفرد لا يحيى حياة واحدة لا تتغير إلا في القصص والروايات وغاية ما في الامر أن وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق في الظاهر ليس إلا وقد بينت في غير هذا المكان أن في جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغييراً جذائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنسية افراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا في زمن السلم قضاة من ذوى الفضل أو موثقين أولى سكينه هادئين فاما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنا بوليون منهم أعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته ووجب أن يكول بحثنا في التي كمل نظامها فنعرف حينئذ ما قد يقول اليه أمر الجماعات لا ماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ أن الجماعة التي وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هي التي تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على ما في مجموعها من الصفات الثابتة التي لعامة الشعب وهي التي تتجد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهي التي يظهر فيها ذلك الناموس الذي سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ما تشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ما هو خاص بها دون الفرد وسنبده بالكلام على هذه الصفات الخاصة لتبين ما لها من الاهمية أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعرون ويفكرون ويعمل بها كل

واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان أولئك الافراد وكيفما تباينوا أو اتفقوا في أحوال معيشتهم وفي أعمالهم اليومية وفي اخلاقهم ومداركهم وعلّة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الا عند الفرد في الجماعة فالجماعة ذات عارضة ( مؤقتة ) متألّفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى اجل تحليّات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له نقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية ألا ترى أنك اذا جمعت جوهريّن مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهريّن لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير أنه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك

ولكى يقر بنا البحث من معرفة هذه الاسباب على وجه ما ينبغى أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الاول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان أدق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لا يسهه أن يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لاشعورية متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود التى لا يحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب أو الامة التى نحن منها فوراء أسباب أعمالنا التى تقصدها أسباب خفية لا ارادة لنا فيها ووراء هذه أسباب كثيرة أخر أشد خفاء وأكثراً غموضاً بدليل اننا لا نتفقه شيئاً منها وجلّ أفعالنا اليومية صادر عن أسباب خفية

تقوتنا معرفتها

يتشابه أفراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التي تكوّن روحه العامة وهم انما  
 يفترون بالخواص الشعورية التي هي نتيجة التربية وبالأخص نتيجة وراثة  
 استثنائية وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات  
 والمشاعر وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الامور التي مرجعها الشعور  
 كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين  
 الرياضي الكبير وبين صانع حدائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل  
 والذكاء ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب أو هو ضعيف للغاية  
 هذه الصفات العامة في الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة في جميع  
 أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هي التي لها المقام الاول في حركة الجماعات  
 فتختفي مقدرة الافراد العقلية في روح الجماعة وتزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة  
 أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية  
 ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر  
 في عدم قدرتها أبداً على الاتيان بأعمال تقتضى فكراً عالياً وعقلاً رجيحاً حتى  
 انك لا تجد فرقا كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفاآت المختلفة  
 وما يقرره جمع كله من البلاد في موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم أن  
 يشتركوا في هذا العمل الا بالصفات العادية التي هي لكل الناس فالذي يغلب في  
 الجماعات انما هي البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من ( فولتير ) كما يقولون  
 غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات  
 لكن لو كان كل فرد في الجماعات لا يأتي لها الا بما اشترك فيه من الصفات  
 مع غيره لكانت النتيجة حداً وسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا  
 فمن أين اذن تأتي تلك الخصال . هذا الذي نبحث فيه الآن  
 الاسباب التي تولد هذه الصفات الخاصة في الجماعات دون الافراد كثيرة  
 الاول أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على



الاسترسال في أمياله مما كان يحكم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغي

السبب الثاني من الاسباب التي تولد في الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التي يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليقه وهي من فصيلة الحوادث المغناطيسية التي سيأتي الكلام عليها وكل شعور في الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معد الى حد أن الفرد يضحى بمصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد في أفراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابلية التأثير التي هي أصل في العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دل عليها علم وظائف الاعضاء منها أنه أصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى في حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذي أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقته وعادته وقد دلّ النظر الدقيق في أحوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير في حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدي المنوم وذلك بتأثير السيالات التي تصل اليه من الجماعة او بأسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هي تعطيل وظيفته المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعته العصبية اللاشعورية التي يسيرها النوم كيف يشاء هناك تنطفئ الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذي رسمه المنوم تلك أيضاً على التقريب حال الفرد في الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله

وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الإشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعاً لا قبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثير حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم بمصادمة تيار الجميع بل الذي يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض آخر كما وقع أحياناً من أن لفظاً سعيداً أو خيالياً يمثل في الوقت المناسب أمام الجماعة يصددها عن ارتكاب افطع الاعمال

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثير والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التي أشير بها الى الفعل هي الاخلاق الخاصة التي يتخلق بها الفرد في الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله في نفسه كان رجلاً مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه في الجماعة ساذج تابع للفريزة ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسه وشجاعته وفيه منه سهولة التأثير بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التي اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان في الجماعة أشبه بحبة من رمال تشيرها الريح ما هبت

ذلك هو السر في أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردّها كل من أفرادها اذا عرضت عليه وحده وفي أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال ما يرفضه كل عضو من أعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كوتفانسيون) الفرنسية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يجمعوا عن تقرير افطع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اظهر الناس برآة من

الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس في ذواتهم وحصد  
بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل ما يفترق به الفرد في الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقاً كلياً  
بل انه قبل أن يفقد استقلاله الذاتي تتغير أفكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير  
البخيل مسرفاً والمتردد سريع الاعتقاد والتقى شريراً والجبان شجاعاً هكذا قرر  
الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٦ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم  
ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراد لرفضه رفضاً باتاً  
نستنتج مما تقدم أن الجماعة دائماً دون الفرد ادراكاً ولكنها من جهة الشاعر  
والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه أو اردأ على حسب الاحوال والامر  
في ذلك راجع الى الكيفية التي تسنفز بها وهذا هو الذي اهمله الكتاب الذين  
قصروا بحمهم في الجماعات على جهة الشر منها فأذا صح أن الجماعة شريرة في كثير  
من الاوقات فمن الصحيح أيضاً أنها شجاعة في أوقات كثيرة أخر تلك حال  
الجماعات التي يستفزها قوادها الى التقاتل في نصرة الدين أو تأييد المذهب أو  
يستحثونها للعمل في سبيل المجد والفخار فيقومون بها بلا تعب وبغير سلاح  
لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما في حروب الصليبيين أو للدود عن حومة  
الوطن كما وقع في سنة ١٧٦٣ نعم ذلك الشجاع لا يقر بشجاعته ولكنها هي  
مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التي فعلتها الامم وهي  
هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك الا يسيراً

## الفصل الثاني

### مشاعر الجماعات و اخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتغلب والغضب - الجماعة العوبة في يد المهيجات الخارجية وهي تمثل تقلباتها المستمرة - البواعث التي تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمنحى امامها النفعة الخاصة - لاشيء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية - تأثير الاخلاق القومية في الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق - طاعة الجماعة للمؤثرات في انها تأخذ الخيالات التي تمثل لها حقائق ثابتة - علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة في التساوى بين العالم والبليد في الجماعة - بعض أمثلة للخيالات التي يتأثر بها افراد الجماعة كلهم - في استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة - في ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الادلة على اثبات أمر معين - ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) في غلو مشاعر الجماعة وبساطتها - الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف - في أن مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) في ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والأمره والمحافظة على القديم - في علة تلك الصفات - في خنوع الجماعة امام السطة القوية - في ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتاً من الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية - في ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقي

(٥) في اخلاق الجماعة - قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من اخلاق افرادها وقد تكون أرقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التي تتأثر بها - علة ذلك

وامثلته - فلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هي الداعي الوحيد  
لل فرد في عمله - شأن الجماعة في تهذيب الاخلاق

بعد أن اجملنا القول في اهم خواص الجماعات ينبغي أن نأتى عليها بالتفصيل  
كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة  
على التعقل وفقدان الادراك ومملكة النقد والتطرف في المشاعر وغير ذلك يشاهد  
ايضاً في الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمراة والمتوحش والطفل ولكني لا اذكر  
هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك  
غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم  
الاولى ثم هو لا يقنع من لا امام له بتلك الاحوال اقناعاً تاماً  
ولنشرع في شرح كل صفة من الصفات التي توجد في أغلب الجماعات

### قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام في صفات الجماعة الأولية انها منقادة عادة الى العمل من  
دون أن تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبى في أفعالها أكبر جداً من تأثير  
المخ وهي بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطرى وقد تكون الافعال التي تصدر عنها  
كاملة من حيث التنفيذ الا ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد في الجماعة  
يعمل طوعاً للمؤثرات التي تدفعه الى الفعل فالجماعة العوبة في يد المهيجات الخارجية  
وهي تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هي مسخرة للمؤثرات التي تقع عليها نعم قد  
يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا  
ينقاد لحكمها وذلك ما قد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بأن في الرجل وحده

قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شيء من ذلك  
تتبع الدوافع المختلفة التي تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التي ترجع  
اليها فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الاقدام أو الجمول لكنها تكون على  
الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها  
ولما كانت أنواع المؤثرات في الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها  
دائماً لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب في انها تنتقل فجأة  
من أفضع الاعمال الى أكبرها رحمة وكرماً فما أسهل ما تصير الجماعة جلادة  
ولكن ما أيسر ما تكون ضحية أيضاً وما سالت الدماء التي اقتضاها تأييد كل  
عقيدة في الوجود الا من بطون الجماعات ولسنا في حاجة الى أن نذهب بعيداً  
في التاريخ لنعلم ما تقدر عليه الجماعات في هذه السبيل فما ساومت على حياتها في  
ثورة ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة في الناس ولو انه أراد  
لوجد مائة ألف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لا يوجد من أفعال الجماعة ما هو صادر عن قصد وروية فهي  
تنتقل من شعور الى شعور وهي على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها  
وقت الفعل مثلها في ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر  
ثم تسكن فتهدأ وسنأتي بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض  
الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادتها صعباً على من يزاوله خصوصاً اذا وقع  
في يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل في

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنسيين في  
العقد التاسع من القرن الماضي حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت  
حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة المهرج  
والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابليون وأتى الفرنسيون تحت  
امرته مالم يكن في الحسبان

الامور كمنظم خفي لتعسر جداً البقاء على الديمقراطية ( الحكومات النيابية ) الا  
 انه بقدر ماتتطرف الجماعة في ارادة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الارادة  
 فانها لا قدرة لها على الارادة المستمرة كما انها لا تقدر على اطالة النظر والتفكير  
 ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ماتمتاز به الجماعة بل هي مع ذلك كالهيمجي  
 لا تطبيق وجود حائل بينها وما تريد والذي يساعدها على أن لا تعقل الحيلولة ان  
 الكثرة تحدث فيها شعوراً بقوة لاحد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد  
 في الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر أو سلب حانوت فان  
 دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع  
 بكثرة العدد وكفى أن يشار اليه بقتل أو سلب لينساب النسياباً لا يثنيه عنه شيء  
 فان كان في طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام  
 الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التي خولفت في مقصدها هي الغضب الدائم  
 وليلاحظ أن خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة  
 من قابلية الغضب والاندفاع والتقاب وجميع المشاعر القومية التي سنأتى عليها  
 فالأولى هي الاساس الذي تركز عليه الثانية وليبان ذلك نقول ان كل جماعة  
 قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت في ذلك كثيراً فالفرق جلي بين جماعة  
 لاتينية وجماعة انكليزية مكسونية واقرب الحوادث في تاريخنا يوضح ذلك  
 بأجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نبأ برقي عن اهانة فرض  
 وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثار تائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب  
 ما كان أشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ آخر بانكسار تافه لجيوشنا  
 في ( لانجسون ) فقامت القيامة وسقطت الحكومة في الحال وفي ذلك الزمن  
 عينه انكسرت الحملة الانكليزية أمام الخرطوم انكساراً كبيراً من هذا بكثير  
 فلم يتزعج له الرأي العام الانكليزي الا قليلاً ولم تتزعج من أجل ذلك وزارة  
 عن مركزها . كل الجماعات في كل الأمم كالنساء وأشدّها شبيهاً بهن الجماعات  
 اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى في وقت قصير لكنه يكون على

الدوام مماساً لصخرة زيبان<sup>(١)</sup> وموقناً انه سيتدهور يوماً من الايام

## ٢

### قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا في تعريف الجماعات أن من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبيننا كيف ان التأثر معد في كل مجتمع انساني وفي ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعة شارات الهدو والسكون فانها على الدوام في حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلاً فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفي الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر أو اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على ما يرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل أو الاحجام عنه كما في الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة في حدود اللاشعور تتأثر بسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهي لا تعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السرفى سرعة انتشار الاقاصيص التي تخرج عن حد المعقول (٢)

ثم أن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد في اختراع الاقاصيص

(١) هي صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حلقها

(٢) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة

تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك أنهم كانوا يرون في مصباح أوقد في نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفي للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة أميال



التي تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذي يعتمد  
 الحوادث في خيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتتقلب صورتها في  
 خيال الجماعة بلا ابطاء لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى  
 تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا  
 ما قد يتوارد علينا من الأفكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق  
 بيننا وبين الجماعة أن العقل يرشدنا الى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التنافر  
 والتباين وانه ليس في قدرتها أن تصل الى مثل هذا التمييز وان كل ما احده  
 خيالها من التشويش بضيفه الى أصل الحادثة فهي لا تفرق بين الشيء وما يرمى  
 اليه بل هي تقبل جميع الخيالات التي تعرض لها ولا نسبة في الغالب بين تلك  
 الخيالات وما وقع تحت الحس أولا

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التي تدخلها الجماعة على حادثة شاهدها  
 وتنوع تلك الصور لأن أمزجة الافراد الذين تتكون هي منهم مختلفة متباينة  
 بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى  
 لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التي تنتشر منها العدوى  
 الى البقية فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس  
 كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولا (١) فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية  
 جسما مرئيا

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التي رواها التاريخ وعليها  
 كلها مسحة الحقيقة لمشاهدها من الألوف المؤلفة من الناس  
 ولا ينبغي في رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل  
 الراجح والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا اذ العالم والجاهل  
 سواء في عدم القدرة على النظر والتمييز ماداموا في الجماعة ورب معترض يقول

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من  
الحوادث التاريخية ولا يكفي لهذا العمل عدة مجلدات غير اني لا أريد أن أترك  
القارئ أمام قضايا لا دليل عليها ولذلك سأتي ببعض الحوادث أتقلها بلا انتقاء  
من بين ألوف الحوادث التي يمكن سردها

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة في موضوعنا لأنها واقعة خيال اعتقدته  
جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد صنوفاً وأنواعاً ما بين جاهل غبي وعالم ألمعي  
رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس في كتابه الذي ألفه في مجارى مياه  
البحر وسبق نشرها في ( المجلة العالمية ) قال

كانت المدرعة (لايبل بول) تبحث في البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت  
قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافية وبينما هي سائرة  
اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشرح رجال السفينة الى الجهة التي  
أشير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره  
سفن تحرق عليها أعلام اليأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقد نفذ الربان زورقاً صار  
ينهب البحر انجاداً للباستين فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط  
أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من  
أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئي وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت  
من الشاطئ القريب واذا تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذي يتولد في الجماعة بحال لا تحتل الشك  
ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا جماعة في حالة الانتظار والاستعداد وهناك  
رائد يشير الى وجود مركب حفرها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل  
من في الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضروري أن تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة  
ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل  
متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها مال كل الجماعات من الصفات وان

كانوا من اكابر العلماء ولبدت هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العاصي وفي الحال تنزوي ملكة التمييز وتنطفئ روح النقد في كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك ما رواه لنا موسيو (دافى) وهو أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (عصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلترة هو المستر (ولاس) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم أجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الارواح من تجسيم الارواح والكتابة على (الأردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التي وقعت امامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات في يده أعرب لهم ان ما كان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوى الحادثة :

والذى يوجب الدهش والاستغراب في بحث موسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته في الحركات التي قام بها بل ضعف الشهادات التي كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلون ان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطأ وانه لو صح وصفهم الحوادث التي يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على أن الطريقة التي استتبطنها موسيو (دافى) بسيطة يندعش الانسان لبساطتها من جراته على استعمالها ولقد كان له من التأثير في أفكار جماعته ما جعها ترى ما لم تكن ترى

ذلك هو تأثير النوم في النوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد أن أنذرت فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية والامثلة التي من هذا القبيل لا تحصى . أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتشالهما من نهر (الشين)

عرضت الجثمان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة اكيده واتفقت أقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضى التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنيتين اللتين عرفهما اولئك الشهود بالاجماع وبان أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدين الا شبه بعيد جداً والذي وقع هنا هو بذاته

ما وقع في الامثلة التي سردناها . تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة  
فقال ذلك وأكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام ما يتولد من  
الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته ثم يتدرج  
من ذلك الى القول بما تخيل فتنشأ عدوى التأثير بذلك الخيال الاول  
فاذا كان أول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثير يكفي أن يكون في الجثة  
التي تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذي قد يكون في الجسم الذي سبقت له  
معرفة ليتخيل انها هي ولو لم يكن بينهما أدنى شبه حقيقي في الخلقة اذ ذلك  
يصير الخيال الاول أشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الادراك وتعطل ملكة  
التمييز تماماً . وحينئذ لا يرى الانسان الشيء الذي أمامه نفسه بل الصورة التي  
خيالت اليه . ومن هنا نفهم السر في خطأ الأمهات التي يخبل اليهن انهن يعرفن  
جثث أولادهن كما وقع في الحادثة الآتية وهي وان تكن قديمة العهد لكن  
الجرائد ذكرتها أخيراً ومنها يدرك القارئ درجة التأثير الذي بيننا كيفيته .  
عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان أشيخاً كثيراً كثيرين عرفوا  
الجثة كما عرفها الاول . وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة  
بمكان اذ جاءت امرأة في اليوم الثاني وهي تصيح : ربي انه ولدي . فلما دخلت  
عليه أخذت تقاب ثيابه فرأت جرحاً في الجبهة فقالت نعم هذا ولدي فقدته منذ  
شهر يوليه الماضي ولقد سرقوه مني ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب  
أحد المنازل واسمها ( شافاندرت ) ثم جيء بزواج اختها فما وقع نظره على الجثة  
الا وقال هذا فيليب . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة  
اذ رأى في عنقه تيممة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك  
السيدة . أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة  
جثة ولد من اهل مدينة ( بوردو ) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس (١)

(١) اقرأ جريدة ( اكبير ) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

والذي يجب ملاحظته هو أن هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان  
أعني من الأشخاص شديدي التأثير أكثر من غيرهم . وذلك يدلنا على مقدار  
قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء . فالواجب أن لا يلتفت الى قول الصبي بحال  
من الاحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان في هذا السن لا يكذب . ولو  
أنهم ارتقوا في معرفة أحوال النفس درجة لعلموا أنه فيه يكذب على الدوام .  
نعم أنهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والآ لكان  
الأولى أن تبني العقوبات على أحد وجهي الدينار ( طره ولا ياز ) من أن تبني  
على شهادة صبي

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول أنها أكثر المشاهدات خطأ وأنها في  
الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لا تفرغ من  
سرد الامثلة التي توجب علينا الحذر والحيطه في الاخذ بشهادة الجماعة . فقد  
حضر ألوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان في واقعة ( واترلو )  
ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقي لهذه الحملة نظراً لتناقض أقوال من  
شهدوها . واثبت الجنرال ( ولسلي ) الانكليزي في كتاب نشره أخيراً أن الرواة  
أخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن في سرد أهم الوقائع في حرب ( سدام ) وهي التي  
أجمع المئات من الناس على صحتها (١)

(١) اني أشك كثيراً في أننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذي نعرفه  
انما هو الغالب والمغلوب وأظن أننا لا نعرف غير ذلك والذي رواه الدوق ( داركور )  
عن حرب ( سولفيرينو ) يصدق على جمع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم  
بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الأوامر  
ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد  
تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل  
أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو  
داركور هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق بعد اجماع  
العدد الكثير على الشهادة من أقطع الأدلة التي يمكن اقامتها لاثبات أمر من  
الأمر ولكن الذي نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب أن تؤلف  
كتب المنطق في هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك في الوقائع التي رواها  
الجم الغفير والقول بأن الأمر شوهد في الزمن الواحد من الوف من الشهود هو  
في الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق أولئك الشهود عليه  
نتج من هذا أنه ينبغي النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال  
لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس  
وأردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فأن عمل أي عمل كنفها كان رديئاً أبول  
من قتل الوقت في وضع مثل تلك التأليف

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للأقاصيص وأن سجلت في بطون كتب التاريخ  
لأن خيال الجماعات لا ينفك بغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن  
من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذي جاء ذكره في الانجيل  
ويهوذا آله الحب الذي ذكره القديس « تيريز » . وبدليل أن « بوذا » الذي  
تعبداه الصين لم يبق بينه وبين « بوذا » المعبود في اليابان وجه شبه ما

بل أنه لا يلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال في خيال  
الجماعات فأن هذا الانقلاب قد يحصل في بضعة سنين . انا شاهدنا قصة أعظم رجال  
التاريخ تقلبت عدة مرات في أقل من خمسين عاما . ففي عهد آل « بوربون »  
كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقا للضعفاء ولو صدق  
الشعراء لبقى ذكره في اكوأخهم « الفقراء » زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة  
صار البطل الكريم مستبداً سفاكاً استاب الحكم والحرية وأهلك ثلاثة آلاف  
الف من النفوس في سبيل اطاعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابليون  
فاذا اتقضى عليه بضعة عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان أمام

== حتى التي ضبطت لساعتها يكاد يكون مستجيلاً

هذه الروايات المتناقضة في وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن في وجود بوذا وقد لا يرون فيه إلا خرافة أو صورة مكبرة من صورة « هرقل » اليوناني غير أنه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون أن التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص

## ٣

## غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة أى سواء كانت طيبة أو رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً في أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق . ويرى الاشياء في جماتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد في غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ما ينتشر بعامل التأثير والعدوى . واجماع السكل على قبوله يزيد في قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولا التردد . فهي كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهي لا يقبل البحث . والرجل منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه فوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل في الجماعة فإنه متى نفر انقلب تموره حقداً شديداً وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص في الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه في العقاب . وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحمل محابها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً في الشر . وتلك بقية

مما ورث أهل هذا الزمان عن آباؤهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماعها الرجل المنفرد المسئول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى أقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام باكرم الاعمال والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيها . بل هى أشد قبولاً لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما أن الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها إلا المشاعر المغالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان البالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض ابدأ الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من ابطالها الغلو أيضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها أن يفخموها فى القابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهوا أن الجماعة تطلب من أبطال الروايات فى مراسم الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيقى .

والكثير ينسب هذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسم على نحو مخصوص فن ذوق قواعد غير أنها قواعد لا تنطبق غالباً على ما يقتضيه الذوق السليم والاحوال المنطقية . والواقع أن فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منخفضة . الا أنه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى أن مديري الملاهى انفسهم عندما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدررون على الحكم عليها الا اذا لبثوا ثوب جماعة متفرجين (١) ولو أنه أتيح لنا التوسع

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى أن الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتتال نجاحاً دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد أن رفضها مديرو الملاهى



في هذا البحث لبينا رجحان تأثير الاخلاق القومية في هذا المقام. لان الرواية التي تخلق العقول في بلد قد لا يلتفت اليها في بلاد غيرها الا بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك في غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها لست في حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام في مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة ابداً. فقد سبق لي بيان ان مدارك الرجل في الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيماً ذلك هو ما شاهدته أيضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) في مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقي أو تنحط في دائرة المشاعر



عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط

والأمره والمحافظة على القديم

قلنا ان الجماعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً بسيطاً وهي لذلك تقبل ما يلقي اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملة أو ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على أن هذا هو الشأن في

---

الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى. كذلك رواية لامارين دي شارلي. أبت الملاهي كلها تشخيصها فانفق أحد السامرة المال اللازم لتمثيلها فثلت مائتي مرة في فرنسا واكثر من الف مرة في بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديري الملاهي في الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز أن يصدر عنهم مثل تلك الاحكام أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم في تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها أن تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه. هذا موضوع لا يسعني الاسهاب فيه وهو جدير بأن يشحن له قلم رجل يجمع بين فن الملاهي والبراعة في علم النفس مثل موسيو سرسي

المعتقدات التي تتحصل من طريق التلقى لا التي تتصل بالانسان من طريق النظر  
والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير في عدم احتمال المخالف ومن  
السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة في كل ما اعتقدت أنه حق أو باطل  
وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت امرتها مساوية لعدم احتمالها . يطبق الفرد  
المناظرة والخلف . أما الجماعة فلا تطبق ذلك أبداً وأقل خلف يأتي به الخطيب  
الذي يتكلم في المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسياب  
الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرذ بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة  
الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمره شائعان في الجماعات كما غير انهما يختلفان في كل واحدة  
منها وهنا أيضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتساط على جميع مشاعر الناس  
وأفكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمره توجد في الجماعات اللاتينية  
اذ بلغت عندها الى حد انها اماتت في الفرد روح الاستقلال التي هي أشد اخلاق  
الانكليزي السكسوني فلا تهتم الجماعات اللاتينية بالاستقلال المجموع الذي هي  
منه . وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع  
المخالف في الرأي لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذي عرفه  
المتطرفون في كل عصر ولم يكن في قدرتهم أن يعرفوا سواه

الأمره وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التي تجيد الجماعات معرفتها فهي  
تدر كهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاها بسهولة عند الطلب وهي  
تحتزم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلاً لانها في نظرها صورة من صور  
الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة  
المستبدين الذين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل في كل عصر وأوان  
وإذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لانه فقد سلطانه واندرج  
في عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس

الجماعة من كان شبيهاً بقيصر يحابهم جلبابه ويرهبهم سلطانه. ويخيفهم صولجانه  
الجماعة في استعداد دائم للانتفاض على السلطان اذا ضعف وهي تحنى الرأس  
أمام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة  
وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطيء في ادراك حقيقة الاجتماع من يظن ان الروح السائدة على  
الجماعات دائماً هي الثورة والذي يوجب الشبهة في ذلك انما هو تعسفها وقسوتها  
والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية  
تخمد سريعاً لان خضوعها لقواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهي  
ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التي هي فيها ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى  
وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان أشد القوم تهليلاً وترحيباً  
بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تغطرساً وتطرفاً لما ألجم جميع الحزبات  
وأثقل بيده التي من حديد

ومن الصعب أن نفهم التاريخ لاسيما تاريخ ثورة الامم اذا لم نكن على علم تام  
بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى الجماعات استبدال أسماء نظاماتها وقد  
تنور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظمات من  
حاجات الأمة التي تلقتها عن الآباء والاجداد فهي ترجع اليه على الدوام . أما  
تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة في  
الجماعات قوية كما هي عند أهل النشأة الاولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة  
وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية  
ولو ان سلطة الديمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار  
والسكك الحديدية ما بلغت الا أن لاستحجال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها  
كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن  
سلطة الجماعات ما بدأت في الظهور الا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة  
العامة والصناعية

## أخلاق الجماعات

إذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته  
وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلاً لشيء من  
ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن إذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق  
مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزّه عن الغاية وتضحية النفس  
والميل الى الانصاف جاز لنا أن نقول بأن الجماعات أهل للتجمل بأخلاق عالية  
أما السبب الذي حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا في أحوال الجماعات  
الى الحكم عليها بالمحطاط الاخلاق فهو كونهم قصرُوا بحثهم على جهة الشر فيها  
فلاحظوا ان أعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب في الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها  
وخشوتتها بقية اطمانت في قاب كل واحد منا والفرد لا يجرا على الاسترسال مع  
هذه البقية حذر الوبال الذي تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن أعمالها  
فاذا هو انخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . ألا ترى انه لما  
لم يجراً على الشر مع أمثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء  
عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرمين به فهي تقترس الرجل اذا غضبت  
فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب  
قاسية كلابهم تمزق بأنيابها الوعل الضعيف والسكل في نظر الحكيم وحش مفترس  
بقي ان الجماعة كما انها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم  
هي أهل للاخلاص في العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما  
يقدر الفرد بل هي أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار أو باسم الدين  
والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وأمثلة الصليبيين ومنتطوعي سنة ٩٣ كثيرة  
يخطئها العد في التاريخ فالجماعة دون الفرد أهل لعظام الاعمال في باب النزاهة

والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت في سبيل معتقدات وافكار وكلمات  
كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التي تقوم بالاعتصاب انما  
تعصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من مياها لنيل الزيادة في الأجر الزهيد  
الذي اقتنعت به من قبل لأن المصاحبة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً بالحركات الجموع  
وهي على التقريب السبب الوحيد في عمل الفرد فليست هي التي ساقطت الجهم الغفير  
من الجموع الى الحروب من دون ان يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هي  
التي جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدي الموت كالقبرة يسجرها الصياد بمرآته  
فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة في ارتقاء الملكات الفاضلة  
في نفوسهم وقتاً ما كما لاحظته ( تايين ) في قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون  
كل ما وجدوه من الاموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع أنه كان من السهل  
عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التي وجهت على قصر ( التويلري ) في ثورة سنة  
١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التي بهرتها وقد كان يكفيها قوت  
عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الاثر

نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى  
في أحوال أقل شدة من التي تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين  
يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وأرفع الفضائل ومن السذاجة ان تقول  
بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً بمظهر الكمال هكذا  
المنغمس في الموبقات والديون والوغد يزجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب  
أو سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذي تعودوه في ندواتهم  
ثبت مما تقدم أن الجماعة كما أنها تميل الى الدنيا هي أهل للتجلى بأخلاق عالية  
واذا صح أن يكون التنزه في العمل والجهد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمي أو  
صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة في الغالب من ذلك ما ليس  
لأعقل الحكماء الا قليلاً حقاً هي تراول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ما ضرنا

من هذا ونحن لا ينبغي لنا أن نشكو كثيراً من الافعال التي تصدر عن الجماعات  
بمحض غريزتها الا النادر لأنها لو تعقلت أحياناً ورجعت الى منافعها القريبة  
منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

## الفصل الثالث

### افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

- (١) افكار الجماعات — الافكار الاساسية والافكار التبعية — في اجتماع  
الافكار المتناقضة — تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها — أثر  
الافكار في الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة
- (٢) تعقل الجماعات — عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول — درجة تعقل الجماعة  
منحطة دائماً — لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التي تجمع الجماعات بينها الا في الظاهر
- (٣) تخيل الجماعات — شدة تخيل الجماعة — انما تتخيل الجماعات بواسطة  
الصور وهي تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلاً — انما يشتد تأثر الجماعات من  
الاشياء بالجهة الخلابية فيها — خلاصة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية  
الحقيقية — تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة في الامم — كيف  
تبدو الحوادث التي لها قوة التأثير في تخيل الجماعات

### افكار الجماعات

بمختارنا في كتابنا السابق عن تأثير الافكار في تطور الامم وبيننا ان كل مدنية

تقوم على أفكار أساسية محدودة قلما تتجدد وشرحنا كيف تتمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لا تدخل عليها الا بالصعوبة وما هي القوة التي تكون لها متى احتلتها ثم أوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الأساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافي وعليه لانعود الى بسط الكلام في هذا الموضوع مرة أخرى وانما نوجز القول في الافكار التي هي من مقدور الجماعات والصورة التي تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الاول الافكار العرضية الوقتية التي تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد أو مذهب من المذاهب والثاني الافكار الأساسية التي تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتاً. مثال ذلك العقائد الدينية في الماضي والافكار الديمقراطية والاجتماعية في الزمن الحالى

فالافكار الأساسية أشبه بالماء الذي يجري الهوينسا في النهر . والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التي تضرب وجه ذلك الماء وهي مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد أخذت الآن الافكار الأساسية التي عاش بها أبأؤنا في الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من أجل ذلك الانظمة التي كانت تقوم عليها وفي كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا

الا ان القليل منها هو الذي ينمو وهو الذي يكون له في المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التي تلقى في نفوس الجماعات فانها لا تسود ولا تتمكن الا اذا وضعت في شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها في هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلاً كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم فيجوز أن يحل بعضها محل بعض كالزجاجات السحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب في قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التي اجتمعت في

مدركتها فتأني بأشد الاعمال تناقضاً وتضارباً

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هي تشهد أيضاً في الافراد لا فرق في ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحي العقل كالذين غلت ثورة الدين في رؤوسهم بل اني شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيري الهندستان الذين تربوا في مدارسنا الأوربية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثةية مجموع أفكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه أو تلك تظهر في الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال واقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض في الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقي لان الافكار الموروثة هي التي لها في الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبته قوتان وراثيتان جاءتا من اختلاط المصاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات وان كانت أهميتها في علم النفس كبيرة جداً فاني أحسب أنه يجب لادراكها عشر سنين يقضيها الباحث سائحاً بين الامم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الا اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الا اذا تغيرت في الغالب تغيراً تاماً واكثر ما يشاهد ذلك في الافكار الفلسفية أو العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات. ويختلف التغيير باختلاف الجماعات أو الامم التي هي منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى ان ليس من الافكار ما هو راق ومنها ما هو وضع اذ كيفما كان الفكر جليلاً راقياً فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على أن منزلة الفكر لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ المعول عليها انما هو



الآثر الذي ينتج عنه الا ترى أن الافكار الدينية في القرون الوسطى والافكار الديمقراطية في القرن الماضي والاجتماعية في زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الا اغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لا حد لآثرها فيما مضى وستكون ولا حد له فيما يأتي ستبقى هي العوامل الاساسية في حياة الدول والممالك زمناً طويلاً

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله في مقدور الجماعات لا يظهر أثره الا اذا دخل في عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضى زمناً طويلاً ولذلك وسائل سنأتى على بيانها في موضع آخر

فلا يتوهمن القارئ أن أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر في السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير أنهم لقرب عهدهم بالايان لا يلبثون أن ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم بعد قليل من الايام رأيتهم يسوقون اليك حججهم الأولى في ثيابها الأولى بلا تغيير لأنهم خاضعون لسلطان افكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهي وحدها الفعالة في موجبات اعمالنا وأقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج اثاراً متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التي أدت الى الثورة الفرنسية في سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت أمة بتمامها لتبيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التي تنتهي اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت على الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاماً وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى أي

حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما أن وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً طويلاً كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائماً متأخرة في افكارها عدة أجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما في الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون أن سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون في قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشيء من صحتها

## ٢

## تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير أن طبقة الأدلة التي تقيمها هي تأييداً لأمور من الأمور أو التي تؤثر عليها منحة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل إلا من باب التشبيه وتلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية إلا أن رابطة الافكار التي تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرياً لا حقيقية فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الاسكيماوي الذي عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب في النجم فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب في النجم وكلمتوحش الذي يتصور ان أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل أو كالأجير الذي هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لرابطة بينها الا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي الى الكلي ومن التخصيص الى التعميم بلا ترو والأدلة التي يقدمها اليها أو تلك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لأنها هي الأدلة التي تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل أو هي تتعقل خطأ وانها

لا تتأثر بالمعقول وكثيراً ما يعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذي احدثته في سماعها على ما بها من الضعف والركاكة وكأني بالمتعجب وقد نسي أن تلك الخطب انما صيغت لتؤثر في الجموع لاليقراها العلماء. فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضر الصور التي تجذبها فاذا نجح فذلك ما اراد ولو التقيت خطب في عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما احدثته تلك الكلمات التي دخلت في الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان أن عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد أي يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً في أمر ما. أما الافكار التي تقلبها هي فهي التي تلقى اليها لا التي يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات في هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأي من طريق النظر الذاتي

### ٣

#### تخييل الجماعات

الجماعات كالذوات التي لا تتعقل في حدة التخييل وفعله الدائم وفي قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التي تحضرها من انسان أو واقعة أو رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات أشبه بحال المنوم الذي تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر في ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف أن شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا في النفس غالباً لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر في حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمي سائد على الحقيقي

لا تتعقل الجماعات الا بالتخيل ولا تتأثر الا به فالصور هي التي تقزعها وهي التي تجتذبها وتكون سبباً لأفعالها

لذلك كان التشخيص في الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الاشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرت القرون وتعاقبت الدهور ولم يتغير هذا الخيال الا قليلاً ولا يزال التمثيل اكبر مؤثر فى الجماعات من كل الطبقات لجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى انه فى عالم الخيال وانه انما ضحك او بكى متأثراً بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل فى النفس فعلى المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ماسمعنا عن ملهى كان يكتر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائماً بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما ارى من اكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهى عليها من ذلك ما للحقيقى تقريباً وهى مبالغة مبالغة ظاهرة الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير فى ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كالجاد البوذية وتشيد اركان المسيحية والاسلام وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشرافية المزعجة فى هذه الايام انما هى نتائج قريبة او بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى ان جميع اقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى أشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم أساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوماً فى ان يحكموا الناس بدونه

قال نابليون في مجاس شورى الحكومة ( اننى اتممت حرب الفندائيين لما تكشلت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البايا ولو كنت احكم شعباً يهودياً لأعدت معبد سايمان) ويظهر الى انه لم يقم منذ الاسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه فى انتصاراته وخطبه وأحاديثه ولا فى عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير فى تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابداً بمخاطبة الادراك والعقل اعنى بطريقة البحث والتقريب بدليل ان ( انطوان ) لم يهيج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل اثارها لما قرأ وصية المقتول و اشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو ما يتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والديول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة أو سر مكنون كاتتصار باهر أو معجزة بالغة أو جرم فظيع أو امل دونه الامل فينبغى أن ترمى الاشياء جملة على علائها وان لا يوضح كنهها ابداً لان مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها أثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه أن القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى أخذت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه للقتلة لم تبد أمام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاءات اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثاً واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام كما لو سقط برج ايقل لتأثروا منه تأثراً عظيماً

انقطعت أخبار احدى بواخر الاطلانطيق فظن انها غرقت وكان لذلك فى

خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودل الاحصاء الرسمي على غرق ٨٥٠  
مركب شرعى و ٢٠٣ مركب تجارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من  
الأرواح والارزاق مالا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما  
ففىها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة  
نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل  
المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها أعنى انه يجب أن يتكون من مجموعها  
صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجماعات  
عرف كيف يقودها

## فصل الرابع

### الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ماهو الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبادة الالهية —  
مميزات الشعور الدينى — قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية — أمثلة شتى —  
فى ان آلهة العامة لم تزل — فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة —  
الشكل الدينى للحاد — أهمية هذه المبادئ من الجهة التاريخية — فى ان الاصلاح  
أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميع الحوادث  
المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

بينما ان الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الافكار أو ترفضها جملة وانها لا تطبق  
المعارضة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات التى تفعل فيها تحتل منها دائرة  
الادراك كلها وسرعان ما تنتقل من التأثير الى الفعل وانها اذا حسن التأثير فيها  
تضحى نفوسها فداء للمقصد التى وجهت اليه وكذلك عرفنا ان مشاعرنا شديدة

مضطربة فالميل عندها لا يلبث أن ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى  
يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنهه اعتقاداتها

إذا دققنا النظر في اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان أو في أزمنة الثورات  
السياسية الكبرى كالتى حصلت في القرن الماضى رأينا أنها تتصبغ دائماً بصبغة  
مخصوصة لا يسغنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم أنها فوق الذوات  
والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الأعمى لأوامرها واستحالة  
البحث فى تعاليمها والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى  
تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله ألهاً  
لا يرى أو معبوداً من الحجر أو من الشجر أو بطلاً من الشجعان أو رأياً سياسياً  
فكله شعور تدخل فيه المعجزات وخوارق العادات والجماعات ترى ان فى كل  
ماخبل لها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد ألهاً بل متى اسلم الانسان عقله واراادته وما فيه  
من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصودة ومرمى أفكاره  
وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى  
ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة  
وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة  
زمن « الهول » متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين  
فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الأعمى والتعصب الوحشى والاكرام  
فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له  
الا اله فى نظرها. هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه  
عباد أشد اخلاصاً من الدين عبده ولم يسهل على معبود قيادة النفوس الى حتفها

اكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه  
 ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموا الآ  
 لأنهم تمكنوا من أحداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة  
 والطاعة ويهينه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان  
 ولقد أصاب موسيو « فوستان دى كولنج » حيث قال فى كتابه على بلاد  
 الغلوا الرومانية أن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى  
 النفوس من الاعجاب بها أعجاباً دينياً قال « ولم يرو لنا التاريخ أن دولة مكروهة  
 من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر أن نفهم كيف أن ثلاثين كوكبة من  
 جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة » انما أطاع القوم لأن  
 الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له  
 فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها  
 دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت  
 بلاد الغلوا كلها وكانت ستين مدينة هيكل الامبراطور ( أوغسطس ) بالقرب من  
 مدينة ( ليون ) وكان لقسوس هذا الهيكل المقام الاول فى نفوس سكان تلك  
 البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فأن الخنوع لا  
 يوجد فى أمة بتامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة هى التى تعبد  
 الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا  
 ليس لفايحى النفوس فى هذا الزمان معابدوها كل لكن لهم صور وتماثيل  
 والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة  
 التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن  
 لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولون قائل تلك أوهام كانت فى الاعصر الماضية فبدها العقل فى هذه  
 الايام لأن العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور أبداً نعم لم تعد الجماعات تطبق  
 اسم الالهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم



تكثر كثرتها منذ مائة عام وهي لم تقم للآلهة السابقين من التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الأيام والذين تقبوا عن الحركة العمومية المسماة « بولنجية » التي حصلت في السنين الأخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الديني في الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة في قرية الا وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان في اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع في التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرر أنه لا بد للجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الآلهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثت ثوب الدين الذي يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو امكن ادخال عدم الاعتقاد في الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد ديني ولصار في الخارج ديناً يتعبد به الناس ومن الامثلة الغربية على ما نقول ما كان من أمر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمي « نهيلست » الذي روى لنا العلامة « رستو فيسكي » قصته قال اشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمي فعمد الى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين احد المعابد وحطمها وأطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل ( بوختر ) و « موليشوت » ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فحل اعتقاده الديني كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت أبداً وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الا اذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعية ما ينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم « تاين » لم ينظر في الثورة الفرنسية الا نظراً طبيعياً لذلك فآتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تقته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما اثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من

الدماء والتوحش والقسوة فلم ير في أبطال ذلك الزمن الكبير الا قطعاً من  
المتبررين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا مانعاً يصدهم عما كانوا يشتهون  
على انه لا سبيل لادراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنسية من القسوة وسفك  
الدماء والحاجة الى نشر الدعوة وعلان الحرب على جميع الملوك الا اذا فطن  
الباحث أنها أي الثورة أثر معتقد ديني جديد حل في نفوس الجماعات ومثل  
ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح « البروتستانتية » ومقتلة صانت بارتلمى و  
(الاضطهاد) و (الهول) فكلمها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من  
شأنه أن يدفع الذي حل في قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما  
يعترض قيام المعتقد الجديد من دون أن تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل  
الاضطهاد هي وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو أنهم استعملوا غيرها ما  
كانوا من الموقنين

ولا تظهر في الوجود أمثال الانقلابات التي مر ذكرها الا اذا قذفت من  
جوف الجماعة وليس في استطاعة اكبر المستبدين اثارها والمؤرخون الذين رووا  
لنا أن الملك هو السبب في واقعة صانت بارتلمى كانوا يجهلون روح الجماعات  
وروح الملوك معاً لأن مثل هذه المظاهرات لا تخرج الا من قلب الجماعات ولا  
يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من تعجيلها أو تأجيلها فليس  
الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما أن (روبسبير)  
و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين احدثوا (الهول) بل نجد  
على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك

# الباب الثاني

افكار الجماعات ومعتقداتها

## لفصل الأول

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وأفكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات - في أن ظهور معتقدات الجماعة

نتيجة اختبار سابق - البحث عن العوامل المختلفة في تلك المعتقدات

(١) الشعب وماله من التأثير الاول - في انه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب - أهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية

في أنها تصير مضرة بعد أن كانت لازمة - في أن الجماعات أشد احتفاظاً

للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيئ استقرار المعتقدات ثم زوالها - في انه هو الذي يولد

النظام من الفوضى

(٤) المنظمات السياسية والاجتماعية - في الخطأ في تقدير تأثيرها - في ان

تأثيرها ضعيف جداً - في انها آثار لا مؤثرات - في انه لا ييسر للأمم أن تختار

منها ما تظنه الأحسن - في ان المنظمات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور

متخالفة بالمرّة - كيف توجد المنظمات - في انه لا بد لبعض الأمم من بعض نظمات

ردئية نظرياً كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية - خطأ الناس في أفكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم

في الجماعات - بعض ايضاحات من الاحصاءات - التربية اللاتينية تضعف الاخلاق

في التأثير الذي يمكن ان يكون للتعاليم - أمثلة عن أهم مختلفة

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل وزيد الآن أن نبحث في كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها في نفوسها

العوامل التي تولد الآراء والاعتقادات في الجماعات قسماً بعيدة وقريبة

فأما العوامل البعيدة فهي التي تهىء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض أخرى أنها تعد التربة التي تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الأفكار يكون فجأة فقد تشبه في انبثاقها والعمل بها انقضاء الصاعقة الا ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه

وأما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي الى الفعل أعني انها تقوم الفكر وتقدم به الى الخارج مع جميع ما يحتمل من النتائج فهي التي تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهي علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجمل الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج أو ضد حكومة تهبط الى الدرك الأسفل

تتعاقب هذه العوامل بقسميها في جميع حوادث التاريخ العظيمة ففي الثورة الفرنسية وهي أكبر مثال لتلك الحوادث كانت العوامل البعيدة هي كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهي التي هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك في اجراء اصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً وهي التي أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ما هو عام بمعنى انه يؤثر في معتقدات كل جماعة وفي آرائها وهي الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث في شأن كل واحد من هذه العوامل

## ١ الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل فله وحده من الأثر ما يربو على آثارها كلها وقد وفيما البحث فيه حقه في كتابنا ( النواميس النفسية لتطور الأمم ) حتى لم يعد من المفيد أن ترجع إليه هنا إذ بينا هناك ماهو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع إليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنيته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاماً وخصصنا أربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولانه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارئ انه رغم ظواهر الحال التي قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الا اذا أصابها التغير . والتحول . نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هي فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب أعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافاً كبيراً وكذا المؤثرات التي تتأثر بها

## ٢

### التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الأمة فى أفكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص

روح الشعب ولها في القوم تأثير عظيم  
تقدم علم تركيب الاحسام من يوم أن بين علم التكوين مقدار تأثير الماضي في  
تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ أيضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لأن  
انتشاره لم يعم بدليل أن كثيراً من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل  
القرن الماضي ممن كانوا يتخيلون أنه يتيسر للأمة أن تنخلع عن ماضيها وتنشئ  
نفسها من جديد غير مستهدية في ذلك إلا بنور العقل وحده وفاتهم أن الأمة  
جسم منظم أوجده الماضي فهي كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور  
الى طور إلا بتراكم اثار الوراثة فيها على مهل

والذي يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هي التقاليد وهم لا يسهل عليهم  
أن يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

وليس هذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليد ما كان هناك شيء يقال له روح  
قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى أن هم الناس منذ وجدوا أن يكون لهم شنشنة  
تقاليد فاذا زال تفعمها اجتهدوا في هدمها والحاصل أنه لا مدنية إلا بالتقاليد ثم  
الرقى موقوف على هدمها . والصعوبة في ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الا انها  
صعوبة كبرى فاذا تأصلت في الأمة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر  
عليها الانتقال واصبحت كالامة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها  
الثورات العنيفة لانها لا تأتي إلا باحدى نتيجتين فاما أن الحلقات التي تقطعت  
من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضي الى التربع في سيادته بدون تغيير  
ما . واما أن تبقى تلك الحلقات منشورة فهي الفوضى وخليفتنا التقهقر والانحطاط  
لذلك كان أكبر النعم التي يجب أن تصبو اليها الامة هي المحافظة على المنظمات  
التي ورثتها وان تسير في الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز  
ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به إلا دولة الرومان في الازمان الخالية وأمة  
الانكليز في الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً في معارضة من

يحاول تبديلها هي الجماعات خصوصاً الجماعات التي تتكون منها فئات معينة وقد سبق لي أن افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضي وبينت أن أشد الثورات عنفاً لا تؤدي الا الى تغيير في الالفاظ ومن شهد في آخر القرن الماضي هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذي كان واقعاً على أهل الكشككة كان يظن أن السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذي طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره ( فوركروا ) أحد رجال الثورة في تقريره اذ ذاك ونقله عنه ( تانين ) قال « ان ما هو مشاهد في كل مكان من اقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنسيين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد في الامكان مقاومة هذا الميل في الامة لأن السواد الاعظم في حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر - وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضاً - القول بإمكان ايجاد تعليم عام يكفي لازالة الاوهام الدينية ووجه الخطأ ان في الدين سلواناً للقسم الاكبر من الساكنين ومن أجل ذلك يجب أن نترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها

هكذا اختلفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثلته مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التي لا يستهان بها هي التي تسكن المعابد ولا في القصور يقيم عتاة المستبدين أولئك يبادون في طرفة عين انما الذي لا قبل لنا به هم أولئك الارباب الذين تمكنوا في النفوس فتحكموا في الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلاً بعد جيل

### ٣

#### الزمان

أهم العوامل في المسائل التي يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك

في المسائل التي يبحث عنها علم الاجسام المنظمة . فهو الموجد الحقيقي الوحيد  
وهو الهادم القوي الوحيد . هو الذي كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع  
الخلية الحقيرة التي اشتملت على أصل الوجود النوعي الى مقام الانسان وكل  
ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول الا بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة  
اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن  
من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التي يعترف بها المؤمنون للواحد  
الديان

بمخنا هذا قاصر على تأثير الزمان في آراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها  
له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التي لا  
تكون بدونها كالشعب وغيره وهو الذي يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه  
تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها وهو مهيب التربة التي تنبت  
فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار في زمن وامتنع وجودها في زمن آخر وهو الذي  
يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيء بذلك قيام الآراء والمذاهب  
في العصور المتتالية لانها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقاً بل ان لكل واحد منها  
جذورا تمتد في زمن بعيد فاذا انبتت قائما الزمان هو الذي هيأ تفتح أزهارها  
وإذا أردت أن تعرف كنهها فارجع الى ماضيها بأنهي بنات الماضي وهي أمهات  
المستقبل وهي اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا الا أن  
نتركه يعمل لئرى كل شيء يتحول ويتبدل . نحن الآن في فزع شديد من مقاصد  
الجماعات التي تهددنا ومما تنبتنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب  
المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو  
(لافيس) : ما من نظام يقوم في يوم واحد بل لا بد في تقرير المنظمات السياسية  
والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقي نظام حكم الشرفاء مضطرباً



غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت  
الملوكية المطلقة قروناً قبل أن تهتدى الى الاصول المنظمة التي تدير بها حكومة  
البلاد وكم من اضطراب وقع في أدوار هذا الانتقال «



### النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى أن النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان  
تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن  
احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة  
الفرنساوية في بدايتها واليه يذهب الآن ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض في  
الاجتماعات مذهباً

ذاك وهم تأصل في الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت  
فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده ليكنهم لم يلاقوا  
صعوبة في اقامة الدليل على أن النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان  
الافكار والمشاعر والاخلاق لا تتغير بتغيير القوانين وان الامم لا تختار نظاماتها  
كما تشتهي كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات  
والحكومات ثمرة الشعب الذي هي فيه فليست هي التي تخاق زمنها ولكنها هي  
التي اوجدها زمانها . وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما  
تشاء اخلاقها وطباعها وكما أن كل نظام لم يستقر الا بعد قرون عدة كذلك  
ينبغي لتغييره قرون عدة . وليس للنظامات قيمة نوعية في ذاتها فلا هي حسنة لذاتها  
ولا هي رديئة لذاتها وان ما صلح منها لامة في زمان يجوز أن يكون مضرآ في أمة أخرى  
لهذا كان من المحقق أن الامة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم في امكانها  
أن تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لكن اللب يبقى  
كما كان أما الاسماء فهي عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذي ينقب عن حقائق

الأشياء الا ترى أن أعظم أمة ديمقراطية في الارض هي الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت أمره حكومة ملكية وان اكبر أمة حقا الاستبداد هي الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهوري الذي يحكمها ذلك ما يعترف به للانكليز اعظم الجمهوريين تقدماً في الولايات المتحدة وانى أذكر للقراء ماجاء في جريدة (فروم) الامريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لا ينبغي أن ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء ان انكلترا هي أول أمم الارض في الديمقراطية أعني الأمة التي بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتي بلغ أفرادها من الحرية أعلى مقام » وبالجملة قائد الامم أخلاقها وطباعتها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها في كتابي السابق وأثبتها بأوضح دليل وأقوى مثال

لذلك كان من العيب جداً اضاءة الزمن في خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شد رحال علم المعاني والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذي اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذي يقوله لنا مؤرخهم العظيم ( ما كولي ) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة في الامم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم . بدأ المؤرخ ببيان ما أحدثته القوانين الاتكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما التي اختلفت بين تقلصات الامم اللاتينية في أوروبا وأمريكا وأوضح ان الاول لم ينله التغيير الا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمي أبداً ثم قال « القواعد التي سار عليها المائتان وخمسون بزماننا من عهد حنا الى عهد فيكتوريا في مداولاتها وقراراتها هي انها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها في الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد الا اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من أجله ولم تجدد الا بمقدار ماتنفادي من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ

أعم من الضرورة التي اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين في كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم أن نأتى على كل قانون ونحوض في كل نظام . فمثلاً يجوز الجدل فلسفياً في هل حصر السلطة وارجاعها في النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها أم العكس أولى . لكن اذا رأينا أمة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة أخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه كان لنا أن نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التي لا مفر منها رانه شرط من شروط حياة تلك الامة وأن نرثي لحال أولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلاً الى حصر السلطة بأشد مما هي عليه والذي يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة في أجزاء البلاد الفرنسية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها أيام الثورة وعقب الحرب الفرنسية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفة التي لاتزال حية في بلادنا لاتزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيماً اعتبارياً لا طبيعياً الى أقسام متعددة توصلنا الى مزج الاقاليم القديمة وخالط سكانها بعضهم ببعض فاذا أمكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه أولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسي تاريخنا نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقي في روح الجماعات لا يكون من طريق المنظمات واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل في حلل الرخاء وتخطر في جلباب السعادة بفضل نظامها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — ألفيناها وهي متمتعاً بنظام مثله تتعثر في أذيال التقهقر والفوضى

وحكمنا بأنه لا دخل لتلك المنظمات لاني سعادة الاولى ولا في شقاء الثانية وبأن  
الذي يحكم الأمم انما هو أخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج  
بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم . نعم قامت  
حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها  
كان ويكون الزام الأمم بنظمات يعتقد الناس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم  
في آثار الاولياء والصالحين وقد يقال أن المنظمات تؤثر في نفوس الجماعات لانها  
تفضي الى مثل تلك الحروب والثورات - والصحيح أن لا تأثير لها البتة لأننا قد  
عرفنا أنها لا قيمة لها في ذاتها سواء كانت الغلبة لها أم عليها وانما الذي يؤثر في  
الجماعات أوهاام وأفراط وعلى الأخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التي  
سندبين سلطانها

## ٥

### التربية والتعليم

لكل عصر أفكار تسود فيه وان كانت في الغالب من قبيل الخيالات وقد  
بيننا في غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هي عليه من القلة  
ومن الأفكار السائدة في هذا العصر ان في التعليم قدرة على تغيير الرجال  
تغييراً محسوساً وان نتيجته التي لا يشككون فيها هي اصلاحهم بل ايجاد المساواة  
بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح  
التعرض له من أصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة في  
الزمن السابق

ولكن أراء الديمقراطيين في هذا الموضوع كما هي في كثير من الموضوعات  
الأخر مناقضة كل المناقضة لما اثبتته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فما أثبتته  
الكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصاً ( هربرت سبنسر ) كون التعليم  
لا يزيد في تهذيب الانسان ولا في سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التي

تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيد علماء الإحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم أو هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الد أعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينساون غالباً الى مذهبهم مما حازوا السبق في المدارس وأشار موسيو (أدولف جيو) وهو أحد أعظم القضاة انه يوجد الآن في كل أربعة الآف مجرم ثلاثة الآف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) أعنى بنسبة (١٣٣) في المائة ولاحظ أيضاً هو ورفقاؤه أن الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها في المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان أن التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر في رقي الاخلاق فانه ينمى الكفآت الفنية ولكن من سوء الحظ أن الامم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون قطا حل العلماء مثل (بريال) و (فوستيل دي كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لا تزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت أنا أيضاً في كتاب لي أصبح قديماً أن طريقة التعليم الحالي عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى أعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً في أصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها. ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربي الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم في المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذي يتلقى علوم الاستاذية لا يعمل الا للحفظ وهو في ذلك كله لا يدرب مداركه وهو لا يعمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لأن التعليم في نظره ينحصر في القاء المحفوظ وفي الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الاقدمين

« أن حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن في النحو أو مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هي من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم في هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بأن المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو أن ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لا كتفينا بالعطف على أولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون في المدرسة نسب « كلوتير » ومصارعات « نوستيري » وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من أن يتعلموا أشياء كثيرة اخر نافعة لكن ضررها أكبر من ذلك فهي تولد في نفس المتعلم سامة شديدة من حالته التي هو عاينها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة في الانسلاخ عنها فلا الصانع ينبغي البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام في فلاحته وأقل الناس في الطبقة الوسطى لا يختار لابنائهم عملا الا في وظائف الحكومة والمدرسة لا تربي رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم الى عمل من ذاته . فهي توجد في أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك الممتعضين المتهيين دائماً للثورة . وفي اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التي تعتقد اعتقاداً دينياً في قدرة الحكومة وبعد امكانها وهي مع ذلك لا تنفك عن القدح فيها والتي تخطيء ثم توأخذ الحكومة بما أخطأت والتي لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه أما الحكومة التي تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها ان تستصنع منهم الا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداة هؤلاء احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة أي من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لا يجد الا مع المشقة نادياً يتولى أعماله في المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة أمام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن في مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون

الفأ لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يجتارون منهم قليلا فعدد الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لأن اكتساب معارف لا يجد صاحبها سبيلا الى

استعمالها هو من انجح الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على أمته (١)

ومن الواضح أن الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما التجارب وهى آخر مرب للامم ستظهر لنا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فى عمل يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه أبأونا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما أوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

(١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لسكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانىة تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم أن فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا تربيتهم كما يفعلون فى انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم « يابوس » اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا أعداء الداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط أخلاق جميع اليابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد أفضت الكلام عن ذلك فى كتاب « تمدن الهند » ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

كتب أحد كبار المفكرين موسيو « تايين » صفحات في هذا الموضوع ما اجلها  
وسأ نقل للقراء طرفاً منها فيما يلي فإبان بأوضح برهان أن تربيتنا في الماضي كانت  
تمائل التربية عند الانكليز او الامريكان في الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك  
ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بأفصح  
لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحي لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب  
التي لا عدّها لها مما يرقى ملكات العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مزار هذه  
التربية التي تعودناها ولولم تخرج الاعطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر؟ لا والاسف  
يملاً قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هي عدة الحياة ولا نجاح الآ  
بها وليس شيء من ذلك في الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها  
لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

أما كون التعليم الفني يربي العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك  
ما شرحه موسيو ( تايين ) شرحاً وافياً اذ قال « لاتتولد الافكار الا في مولدها  
الطبيعي الاعتيادي والذي ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التي  
يتأثر بها الشاب كل يوم في المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامي ودائرة  
الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات  
ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئاً كان الصنع أو  
حسناً غالى الثمن أو رخيصاً . هذه هي الملتقطات الصغيرة التي تتناولها العين  
والاذن أو الأيدي أو الشم أيضاً التقاطاً غير مقصود حيث تجتمع وتختمر  
وتأخذ لها حيزاً تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلاً أو آجلاً الى تركيب  
جديد أو تبسيط مركب او طريقة اقتصاد أو تحسين اختراع والشاب الفرنسي  
محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول  
الضرورية في الوقت الذي هو أحوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع  
سنين أو ثمان في المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التي



تحصل في الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ما كان أتقنها واكبر أهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان أو الثلثين انهم لا ينجحون وأخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاههم الدرس فلا يعودون ينفعون . كلفوهم بما لا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو امام لوحة أن يكون مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقي على السامعين جملة من العلوم التي يبحث فيها عن جميع ما علم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك أو ما يقرب منه مدة ساعتين ولكنهم لا يبقون كذلك بعد مضي شهر من الزمان فلا يقدر ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديداً لأن الملكات ألتت سلاحها ونضب ماء الأثمار منها اذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التام وهو في الغالب الرجل الذي قد فرغ منه . هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور في دائرة معينة وان يستقر على الدوران في الدائرة عينها وينزوي الى العمل الضيق الذي اقام فيه وصار يؤديه بانتظام . ولا شيء بعد ذلك . هذه هي الثمرة في المتوسط ولا شك في ان الوارد لا يساوي المنصرف أما في انكلترا وفي امريكا كما كان في فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوي الثمرة ما صرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة ما لنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشيء نفسه فالمهندس مثلاً يتكون في المصنع لا في المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد أن يصل في حرفته الى الحد الذي تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملاً أو رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند

هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هي الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التي تجعل مستقبل المرء كله معلقاً على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو في التاسعة عشرة أو المئتمة للعشرين مدة سويغات معدودة قال موسيو ( تايين )

« يدخل التلميذ والعود اخضر في المستشفى أو المعدن أو المصنع أو مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء في الحرفة عندنا ويكون قد تلقى أولاً بعض دروس عامة مختصرة أو وجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التي تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها في أوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العلمية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير في طريق العمل المستقبل الذي اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الوسطة يتمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ما ملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين وأحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفايته ومادته منفذاً نافعاً بل مبدئاً مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة في الآلة وهو أيضاً المحرك لها

أما في فرنسا حيث سارت الطريقة الاخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين في كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التي تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى في ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه في الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة أو الامتياز لا انتظاراً لشيء آخر وقد أعدوا لذلك اردأ الوسائل فأخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة

في حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد وأجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التي لا بد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقي الذي أضحي على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذي يجب تطبيعه بطبائعه أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانساني الذي يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبتة ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائماً على قدميه . مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتابع على ضرورته وكونه أهم ما يجب أن يقتنى . لا تكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الارادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من أن تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط في أول خطوة يخطوها بين الناس ويكون في بداية أمره كلما مد يده للعمل تولاه الكمد وأخذ الخزي زمانا طويلا وقد يصير كالأعرج ويبقى كذلك دائما . تجربة قاسية ذات خطر تضرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى (١)

(١) راجع تايين ( النظام الحالي جزء ٢ صفحة ١٨٩٤ ) وهذه الصفحات هي آخر ما كتب تايين تقريبا وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكني مع الاسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنا خارج فرنسا لا يدركونها على ان التربية هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها التأثير في نفس الأمة ومن سوء الحظ انه لا يكاد أحد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التي نجرى عليها هي من أشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده ومما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب « تايين » والمشاهدات المتعلقة بالتربية في أمريكا التي ذكرها موسيو « بول بورجيه » في كتاب « بحر آخر » فقد لاحظ هو ايضا ان تربيتنا لا تخرج الا واسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام

كأني بالقراء يظنون انا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن نحن  
 ما زلنا فيه لانه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التي تتولد الآن في  
 الجماعات ان نعرف كيف هيئت الارض التي تنبت فيها التعليم الذي يعطى الأمة  
 هو المرأة التي يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذي يبذل منه الان لشباننا  
يدل على مستقبل مظلم جداً. كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن أو تفسد من  
 بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة  
 المتبعة عندنا في التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد أن كانت لاهية بنفسها أو  
 لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من الممتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير  
 به المتهوسون أهل التخيلات أو المتفهبون تجار الكلام فالآن نحن نعلم أن  
 الاشتراكيين والفوضويين يربون في المدارس وان فيها تحضر أوقات الخطاط الامم  
 اللاتينية عما قريب

## الفصل الثاني

### العوامل القرينية في افكار الجماعات

(١) الصور والالفاظ والجمل - فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية - في  
 ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التي تحدثها في الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقي -  
 = على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم او فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان  
 للرجل المتمدن اذا خاب بالخطاط اخلاقه وعجزه او فقد الرشد فصار آلة هدم  
 وتخریب » ثم جاء بمقارنة جديدة بالامعان بين مدارسنا الفرنسية التي هي  
 مصانع اتلاف والمدارس التي تربي الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك  
 يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتي ليس لها من ذلك الا ما جاء  
 على السنة خطبائها لا الذي رسخ في عقولهم

في أن تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة  
على كثرة اختلاف معاني بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق  
اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً في  
نفوس الجماعات — اختلاف معاني الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف  
معنى ديموقراطية في أوروبا وفي أمريكا

(٢) — في الاوهام — في اهمية الاوهام — في أن الاوهام موجودة في  
أساس كل مدينة — ضرورة الاوهام في الاجتماع — في ان الجماعات تفضل الوهم  
على الحقيقة

(٣) — التجارب — يجوز أن تولد التجارب وحدها في نفوس الجماعات  
حقائق لازمة وتهدم أوهاماً ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ما تقتضيه  
التجارب اللازمة لاقتناع الجماعات

(٤) — العقل — عدم تأثيره في الجماعات — في أنه لا يمكن التأثير في الجماعات  
الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق في التاريخ — في الاسباب الخفية  
للحوادث الخارجة عن المعقول

فرغنا من البحث في العوامل البعيدة التحضيرية التي تهيم نفوس الجماعات  
لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا أن نبحث في العوامل التي تؤثر فيها  
مباشرة وسنرى في الفصل الآتي كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها  
وقد بحثنا في القسم الأول من هذا الكتاب في مشاعر الجماعات وافكارها  
ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التي تؤثر فيها فنحن  
نعرف مما تقدم أي العوامل يفعل في تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها  
خصوصاً ما جاءها منها في شكل صور ترسم في الخيال ولما كانت مناشيء المؤثرات  
مختلفة كانت العوامل التي لها قوة التأثير في نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها  
لهذا ينبغي الكلام في كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان أحوال الجماعات

تشبه بعض الشبه طلاسع الارصاد عند القدماء فاما أن نتمكن من حل طلاسعها  
واما ان نستسلم لها فتأكلنا .

## الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث في تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست  
الصور ممكنة في كل وقت لكن من السهل استحضارها في الذهن بالحدق في  
استعمال الالفاظ والجمل ومتى كان المستعمل لها بارعاً فلها قوة السحر عند معتقديه  
في الزمن السابق فهي التي تثير في نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب وهي  
التي تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لا يمكن  
أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوس القديم

السر في تأثير الالفاظ للصور التي تحضر في الذهن بواسطتها وليس لذلك  
التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان أشدها تأثيراً ما كان معناه غير  
واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة حرية . وهكذا  
مما أبهم معناه ويحتاج في تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم ان لها سلطانا  
ينساب في النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تتمثل  
الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل في تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ألفاظ  
وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة  
وجوه السامعين وتغنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة الهيبة .  
ألفاظ وجمل تثير في النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار مخوفة بالا كبار  
والاعظام ابهامها يزيد في قوتها الخفية فهي آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت  
خلف (المظلة) التي ترتعد لهيبتها فرأى العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التي تستحضرها الالفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة

باختلاف الأجيال والأمم وان اتحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الاثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ماهو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ما تكون له تلك القوة اولاً ثم تبلى بالاستعمال فتفقدتها تماماً وتصير أصواتاً فارغة تنحصر فائدتها في اعفاء المتكلم بها من التفكير والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ في صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها أن يجتاز الحياة بها من دون احتياج الى اجهاد نفسه بالتفكر في أمر من أمور الدنيا

من تأمل في لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التي تتركب منها لا تتغير مع الزمان الا ببطء عظيم انما الذي يتغير على الدوام هو الصور التي تلازم تلك الالفاظ والمعاني التي تؤديها ومن هنا قلت في بعض مؤلفاتي ان ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصاً اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنسية كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسكريتية أو أردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين أو ثلاثة فذلك عبارة عن احلال الصور والمعاني المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرّة وكانت معروفة لأمم لا نسبة بين حياتها وحياتنا. نقل رجال الثورة الفرنسية عن الرومان وعن اليونان ألفاظاً وظنوا انهم بذلك يقدونهم في نظاماتهم وهم انما أثبتوا لألفاظ قديمة معاني ما كانت لها أبداً فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء أسنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سدهاء الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه أفراد من صغار المستبدين وتحكموا في قطيع من العبيد المسخرين. تلك جمعيات أشرف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أي شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية في الافكار أيام كان اكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات في مدينة من المدن فكان معنى وطن عند أهل اتيينا أو أهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية

لأنها كانت مدائن متباغضة وفي حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هي التي أوجدت وطن الغلوي بإيجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن في نفوس الامراء الفرنساويين ما تفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبي على ملكهم كما فعل البرنس كوندية ولا في نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لابلبلاد التي هو منها خفيماً كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التي تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الا مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا أن معاني الالفاظ غير ثابتة وانما عرضية أي وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فأذا اردنا أن نؤثر في الجماعات لزمننا أن نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لامعناها القديم ولا الذي يفهمه منها من يختلف معها في الفكر والمعقول

ومن أجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التي تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون أن يتعرضوا لتغيير المسميات لأن هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظتوكفيل منذ بعيد وكان نقاداً أن حيل أعمال القنصلية



والامبراطورية (في فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من المنظمات القديمة  
لباساً جديداً من الالفاظ أعني الاعتياض من الفاظ أصبحت تؤدي في الازهان  
صوراً مكروهة بالفاظ لا تثير فيها هذا التأثير لحدثها فسموا العوائد الشخصية  
ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن أهم وظائف سواس الامم تسمية التسميات التي صارت الجماعات لا تطبق  
سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة أو على الاقل لا مقبولة ولا مكروهة لأن  
قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفي تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء  
مختارة ليرضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) أن اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية  
والمساواة وهما كلمتان محبوبتان في زمانهما عند الناس « من اقامة استبداد أحق  
به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح في  
الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك »

فالحكام كالمحاميين يرجع ففهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة  
هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة  
الواحدة اختلافاً كبيراً فهي وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك  
بلغة واحدة

رأينا في الامثلة التي اتينا عليها أن الزمان هو اهم العوامل في تغيير معاني  
الالفاظ وكذلك تختلف المعاني في الزمن الواحد اختلافاً كلياً عند الامم التي  
اختلفت في الجنس وان تماثلت في المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق  
له تطواف طويل في الامم فلا أطيل الكلام فيه ولكني أشير الى أن اختلاف  
المعاني واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالخاص فيما يكثر استعماله منها  
على لسان الجماعات مثل لفظي ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالها الآن  
الافكار والصور التي تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بينا عند  
الجنسين اللاتيني والانكليزي السكسوني فعني الديموقراطية عند الاول انزواء  
ارادة الفرد واقدامه على العمل من تمسه امام ارادة المجموع وهتمته والمجموع

تشخصه الحكومة<sup>(١)</sup> فالحكومة هي المكافئة بإدارة كل شيء وحصر كل شيء واحتكار كل شيء وصنع كل شيء وهي التي تلجأ إليها دائماً الأحزاب بلا استثناء من أحرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزي السكسوني وبالاخص الامريكي من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتي الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما أمكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشيء حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد في بلد جمود ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتي واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد في بلد آخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول<sup>(٢)</sup>

## ٢

## الاهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاهام فأقامت لموجدتها أكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من مدينة وما من حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة في طليعة جيوشها أريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية في هذه الايام . هي التي شيدت هياكل الكلدان ومصر وأقامت المساجد والبيع في القرون الوسطى وهي التي قلبت القارة الاوربية من الرأس الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع في جبين كل ما أبرزه العقل من المستجدات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية . يهدمها الانسان أحياناً ولكنه يعاني في ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التي بيدها زمام الامر في البلاد

(٢) شرحت القول بأسهاب في كتابي ( ناموس تطور الأمم النفسى ) على

الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو ( بول بورجيه ) في كتابه ( بحر اخر ) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلاً بذاته

أن يقيمها من جديد فلولا هي ماخرج من بربرته الاولى ولولا هي لراح مسرعا  
يتخبط في أودية الخشونة والتوحش نعم هي خيالات باطلة وهي من نبات  
الاحلام ولكنها هي التي ساقته الامم الى ايجاد ما في الفنون من رفيع وجميل  
وما في الحضارة من عظيم وجليل

قال ( دانيل لوزيار ) لو أيبدا في دور العاديات وما في المكتبات العمومية  
وكسرت فوق بلاط مماشيا جميع التحف والاثار الفخمة التي أبدعتها الفنون  
والاديان ما بقى في العالم شيء مما ولدته الاحلام وما كانت الالهة والابطال ولا  
الشعراء الا لتحدث في النفوس شيئا من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لا حياة  
للناس بغير الأمل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت  
عليه قوة الخيال لانه أصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب  
الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضي بهدم الاوهام الدينية والسياسية والاجتماعية  
التي عاش بها آباؤنا قرونا وأجيالا فلما ظهروا عاينها كانوا قد سدوا أيضاً منابع  
الرجاء وأغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذي خنقوه قوى  
الطبيعة العمياء الصماء التي لا تشفق على الضعفاء ولا تجنو على التعماء

سارت الفلسفة الى الامام شوطا بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهريء للجماعات  
خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت  
الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث  
يكون الضياء . ان الحقيقة لم تكن أبداً العامل الاكبر في تطور الامم ولكنها  
الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب في قوة مذهب الاشتراكية في عصرنا  
هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذي لا يزال حيا في العقول فهو يعظم  
ويتجسم مع تراحم أنوار العلم التي تبرهن على فساد ذلك لان قوته آتية من  
جهل دعائه بحقائق الاشياء جهلا كافيها يجرئهم على وعد الناس بالسعادة في الحياة  
والآن أصبح هذا الوهم سائداً فوق ادلال الزمن الماضي وله الملك آجلا فما كانت

الجماعات في ظمًا إلى الحقيقة طول حياتها وإذا تبدت امامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التي ترضى الأمرة عاميها لمن أضلها والويل منها لمن هداها

### ٣

#### التجارب

التجارب هي على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة في نفوس الجماعات وإزالة الاوهام التي عظم ضررها انما ينبغي أن تكون عامة ما أمكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لا تؤثر غالبا في الذي يليه ولذلك لا تصالح الحوادث التاريخية للدليل بل تصالح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل إلى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها إلى زعزعة الوهم المتأصل في نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخي العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذي تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها في زمن الازمان

✖ واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنسية لانها تدل على اننا احتجنا إلى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار الفتن والقلاقل في اوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف ان الامة لا تخلق خلقا جديداً بارشاد العقل وحده هوقنا بتجربتين منهكتين في خمسين عاما لبثت من طريق التجربة ان القياصرة تكلف الامم التي تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما أرادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد والثانية أدت إلى سلاح إقليم عنها وضرورة ايجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من تهدد قريب وهي واقعة لا محالة يوما من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التي استنزفت ثروتنا لكي تطلع الامة كلها عن الوهم بأن جيش الالمان العرمرم لم يكن الأعبارة عن حرس ملي<sup>(١)</sup>

(١) كان رأي العامة في هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين في ذهنها

لا خوف منه كما كانوا يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً  
ولو أردنا أن نبرهن للأمم التي تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد  
التجارة الأجنبية للزمن القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن  
السهل الاكثار من الامثلة على ما تقدم



### العقل

لولا الحاجة الى بيان أن لا تأثير للعقل في الجماعات ما احتجنا الى ذكره بين  
العوامل التي تؤثر فيها لأننا قدمنا أن البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات  
وانها لا تعقل الا بالمشابهات الرديئة ولهذا فإن الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر  
انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها<sup>(١)</sup> فلا جل  
اقناع الجماعة ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقها فيها

= لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى في ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل  
الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى  
باسم كهذا يرسم في الذهن على الصورة التي عرفها من قبل ولا يتوجس الناس  
منه خيفة وكان خطأ الجماعات متعدداً الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار  
العامة فقد رأينا موسيو ( تيرس ) يقول ما يأتي ضمن خطابه الذي ألقاه على  
مجلس النواب في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أوليفيه في كتاب نشره  
حديثاً وكان ذلك القطب السياسي يتبع دائماً افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم في  
فكر أبداً قال ناقلاً « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوي لجيشنا على  
التقريب الا حرس ملى يشبه الحرس الذي كان لنا وعليه لا أهمية له » وهي رواية  
تبلغ صحتها ما بلغه رأى ذلك السياسي في ضعف مستقبل السكك الحديدية .

(١) ترجع ملاحظاتي في فن التأثير في الجموع وضعف قواعد المنطق في هذا  
الموضوع الى زمن حصار « باريس » رأيت ذات يوم أناسا يسوقون أحد قواد

ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص أمامها صوراً مؤثرة وينبغي أن يكون مقتدراً على الرجوع القهقري متى وجد المقتضى وان يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التي تلجىء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لأن الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه أقل تأثير عندهم

أما المناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عاداتهم هذه في مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقي اعنى الجمع بين الشئ ونظيره في الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر » وهو مسلم غير أنه لا فرق بين

= الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أ كداس من حوله يزجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان يأخذ رسم أحد المعامل لبيعه للبروسيانين فلما وصلوا به خرج أحد اعضاء الحكومة وكان خطيباً ذائع الصيت ليخطب في الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلاً وكنت انتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله أن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون وان رسوماها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت - كنت شاباً في ذلك الحين - اذ سمعته على تقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجمع « سيأخذ منه العدل أخذا لا رحمة فيه فأتركوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تم التحقيق الذي بدأتموه وسنرجه في السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق في داره ولو انه خاطبهم بما جال بخاطري من الادلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

(١) هو اسم الحكومة في ذلك الحين

الجماعة والمادة في عدم ادراك النظائر بل في عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجي أو المتوحش أو الصبي بالحجة العقلية والدليل المنطقي وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة في اقناعهم

على انه لا داعي للتجربة في الهمجي لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفي ان نذكركم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكراً انوا تحت حكمها الفى عام وبقي الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وامكن البحث في صحتها ولقد كان اصحاب العقول النيرة كثيرين في القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان في الاوهام التي استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوماً في صحة اساءة الشيطان أو في ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أمما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا أن نقول به بل نرى انه لو كان الهدى للعقل ما اندفعت الانسانية في سبل المدنية والحضارة بالهمة التي اوجدتها الخيالات والاهوام . فليس لنا غنى عن الاوهام لأنها نبات الغرائز

كل شعب يحمل في كيانه العقلى نواميس مآله في الوجود والظاهر انه يسير محكوماً بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بنطرة لا مقدور له فيها حتى في نزعاته التي يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر أحيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التي تجعل بذرة البلوط شجرة كأماها أو التي تدور بها ( ذوات الاذئاب ) في دائرتها

على انه لا يسعنا أن نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها في حركة تطور الأمة العمومية لا في الحوادث الفردية التي يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكون من مصادقات غير معقولة بالمرّة . فلقد كان مما لا يصدق العقل ان نجاراً جاهلاً هو

« غاليليه » <sup>(١)</sup> يصير مدة التي عام كآله جلت قدرته يؤسس باسمه اهم اركان  
 المدنيات في الدنيا وكان مما لا يصدق العقل ان عصابات من العرب تندلع من  
 صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التي عرفها اليونان  
 والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لا  
 يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير في أوروبا التي لها قدم راسخة في التاريخ  
 وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك  
 الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكام ولا نطلبن منه أن يتداخل كثيرا في حكم الامم فما  
 بالعقل بل على الرغم منه في غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وانكار  
 الذات والايان بالدين وحب المجد والوطن وهي الصفات التي كانت ولا تزال  
 أقوى دعائم المدنيات كلها

## الفصل الثالث

### قواد الجماعات وطرقهم في الاقناع

- (١) قواد الجماعات - حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه - روح القواد -  
 القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات - استبدال  
 القواد نتيجة لازمة - أنواع القواد - شأن الارادة
- (٢) وسائل التأثير التي يستعملها القواد - التوكيد والتكرار والعدوى -  
 تأثير كل واحد من هذه العوامل - كيف ترتقى العدوى في الأمة من الطبقة  
 السفلى الى الطبقة العليا - في ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما
- (٣) النفوذ - تعريف النفوذ وأنواعه - النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي -  
 أمثلة متنوعة - كيف يزول النفوذ

(١) كذا في الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفي سنة ١٦٤٢



نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها  
بقي علينا أن نذكر كيفية استعمال هذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها  
استعمالاً مفيداً

## قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان أو من بنى الانسان الا  
جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً  
والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الا ان له بذلك شأننا  
كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به  
نظام وحدة الجماعات ويهيئها لأن تصير طائفة خاصة  
والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً . أعنى انه كان مسجوراً بالفكرة  
التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الا ما كان منها  
وان كل ما خالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسيير) أسكرته افكار (روسو)  
فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها.  
ليس القواد غالباً من أهل الرأى والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام  
وهم قليلو التبصر . على انه ليس فى قدرتهم أن يكونوا بصراء . لأن التأمل يؤدى  
غالباً الى الشك ثم الى السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب  
المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف  
الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم  
حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منه الخطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا  
الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على  
النفس فلا يبتغون فى الغالب أجراً على عملهم الا أن يكونوا من ضحاياهم . تزيد  
شدة اعتقادهم فى قوة تأثير أقوالهم . والجموع تصغى دائماً الى قول ذى الارادة

القوية الذي يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جباة فقدوا ارادتهم  
والتفوا كلهم حول من كان له شيء منها

وجد القواد في الامم على الدوام . غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد  
الصادق الذي يصير به المرء رسولا في قومه . بل هم في الغالب قوالون سوفسطائيون  
لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا  
رضاهم وقد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً الا أنه سريع  
الزوال . أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات  
وحركوها مثل ( بطرس الراهب ) و ( لوثر ) و ( سافونارول ) ورجال الثورة  
الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا  
بعد أن سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك  
القوة الهائلة في النفوس وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً خياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد في النفوس لافرق بين أن  
يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً . ولا أن يكون محله عملاً أو انساناً أو رأياً  
بهذا كان تأثيرهم عظيماً جداً . لأن الايمان اكبر قوة في تصرف الانسان . وقد  
صدق الانجيل في قوله أنه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمناً زادت  
قوته عشر أمثالها . والذي قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين  
الذين لم يكن لهم من الحول الا الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا أهل  
البأس على الاخص هم الذين أقاموا الاديان الكبرى التي سادت على الدنيا . واخطتوا  
الممالك الشاسعة التي امتدت فوق السطحين

غير أن الامثلة التي ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل  
على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل  
الذي يقف في قهوة أطبق الدخان في سماءها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك  
صيفاً حفظها من دون أن يدرك معانيها . ولكنه يؤكد أن في العمل بها تحقيق  
جميع الأمنى والآمال

لا يلبث الانسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك أمر واقع في جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما أفراد طبقة العامة فإن الواحد منهم متى خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكراً واضحاً في امر من الامور . وكلهم غير كفاء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التي تصنع لقراءها افكاراً وتحصل لهم جملاً مصوغة تغنيهم عن التفكير الا أن البديل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد أن تكون مستبدة على ان استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم اشد عريضة واصعب مراساً مع مجرد أولئك القواد من كل شيء يستندون عليه في سلطتهم فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات وميقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كما تركت هي الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفكك الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيوس اعتصابهم الاخير في باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . أما الحاجة التي يشتد شعور الجماعة بها هي الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظماً الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول أصحاب حدة ونزق وشجاعة وأقدام . وهم على الأخص نافعون في تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفي جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل ( ناي ) و ( مورات ) زمن الامبراطورية الاولى ومثل ( غاريبالدي ) في عصرنا

هذا فانه كان رجلا هجو ما لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة ( نابولي ) القديمة على رغم الجيش المنظم الذي كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها فلما تبقى بعد زوال السبب الذي دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدعش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لا يستطيعون التصرف في أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين في تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا أنفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستوات عليهم يد أو فكر من الافكار وساروا في طريق مرسوم من قبل

أما الفريق الثاني من القواد وهم ذوو الارادة الثابتة فان تأثيرهم أعظم بكثير وان كانوا أقل ظهوراً في الشكل وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و (كريستوف كولومب) و (دولبس) . وسواء كان قواد هذا الفريق من الاذكياء أو الاغبياء لهم الدنيا أبد الأبدان لان الارادة الثابتة التي اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شيء الا ان الناس لا يدركون دائماً ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذي يكون من ورائها هو انه لا شيء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتي به الادارة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذي فصل الدينين . وأنجز عملاً قصرت عنه همة اكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك في عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قد أدركته وكل شيء ينطفئ أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ما تأتي به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر العقبات التي ذلت لفتح قناة السويس . وقد نلخص الدكتور ( كزليس ) وهو من شهود الحال في أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلاً عن صاحبه الذي خلد التاريخ

ذكره فقال « كان - يعني دلسبس - يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القنادة رحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاتي من الصعاب التي ذلها . وكيف جعل الاستحيل ممكناً وروى المقاومات التي صادفته . والتجزبات التي اعترضته واليأس الذي كان قد استولى عليه قلبه والخيبة التي كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكثرا وهي تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميدالفرنساوي أشد الجميع معارضة في البدء بالعمل . حتى انه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء القرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجذ وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علما بأن الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلوها كما ينبأ بالكسوف أو الخسوف »

ان الكتاب الذي يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هي التي كانت على هامه أكبر حوادث الحضارة والتاريخ

## ٢

## وسائل القواد في التأثير

## التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كالحراق قصر أو الاستماتة في الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والأمثلة أشد ذلك تأثيراً في نفوسها الا انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وان يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتي الكلام فيه لكن اذا كان الغرض بث أفكار في عقولها أو معتقدات في نفوسها كالأفكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما تقدم . وأخص ما يستعمله القواد منها ثلاث

التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطيء الا انه متى انبث فيها المطلوب  
لزمها زمتنا طويلا

فأما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر في نفوس الجماعات متى كان  
بسيطا خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله  
مسحة الحجة والتقدير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين  
جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون  
الدفاع عن عمل سياسي وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها .  
الا أن قيمة التوكيد هي بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك .  
وأظن أن نابوليون هو القائل بأن أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشيء  
رسخ في الازهان رسوخا تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير في عقول المستنيرين وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب  
أولى . والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللا شعورية  
التي تختمر فيها أسباب افعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد  
منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر في تأثير الاعلانات  
العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل  
اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهي باعتقاد صحة الخبر .  
ويقرأ الف مرة أن دقيق فلان شفى أعظم القوم من مرض عضال فيميل الى  
التجربة أن اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم في الصحف أن زيدا  
من الاندال وعمرأ من الفضلاء فينتهي باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً في  
جريدة أخرى ما يخالفه فإنه لا يفيل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكري  
يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك في بعض المشروعات المالية  
الشهيرة التي تمكن اصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لأن للافكار  
والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى في الجماعات تماثل في قوتها عدوى

المكروبات وذلك امر طبيعي لوجوده في الحيوانات متى اجتمعت فانقرس يقبع في مربوطه فتفعل فعله الخيل كلها . وتجزع الشاة أو تضطرب في حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان في الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب في سرعة ازعاج الكل لفرع الواحد بينهم . حتى أن اختلال القوى العقلية معد . وكثير ما هم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعاً من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب في العدوى وجود الافراد الكثيرين في مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التي تتخذ لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهياة من قبل باحد العوامل البعيدة التي مر ذكرها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت في باريس وماعتمت ان امتدت الى قسم كبير من اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك قالوا أن حب التقليد تأثيراً كبيراً في الناس وليس التقليد الا اثرأ بسيطاً من العدوى . وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة في غير هذا الكتاب فاكثفي بايراد ما قلته اذ ذاك مما شرحة بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هي التي تجعل للبديء « المودة » تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك في الافكار أو الاراء او الادبيات أو اللباس لأن الذي تقاد به الجماعات هو المثل لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البديء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المؤلف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير في قومهم الا نادراً لبعدهم عن المبتدع . ومن هنا قل تأثير الاوروبي في الشرق مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه أهل كل عصر في كل أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل

انهم متفاوتون كالحكام والعلماء والادباء فانك ترى على أفكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك في الحال على انهم أبناء عصر واحد . ولا يلزم أن يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذي يصبو اليه . والعمل الذي اعتاده . والبيئة التي يختلف اليها <sup>(١)</sup>

ويبلغ تأثير العدوى الى حد انه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هي التي تنفر من الشيء في وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضاً له كما وقع في ( تانها وزر ) <sup>(٢)</sup> والعدوى هي الاصل في انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففي الحجة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلاً ما تولدت أفكار الجماعات في كل عصر من غير هذا الطريق . وقد أصاب (رنان) <sup>(٣)</sup> اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين «بالفعلة الاشرار الكين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة الى أخرى» وقال (فولتير) <sup>(٤)</sup> قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لا يدين بها الا أخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى في مثل تلك الاحوال تبتدىء في الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة في مذهب الاشرار الكين لأنه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون أول ضحاياه لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية هذا هو السبب في ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لا بد له من

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة

١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجيز نفر الناس منها أولاً ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا في أواخر القرن الماضي وكان قديساً في مبدأ

أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى ( حياة المسيح )

(٤) أشهر كتاب فرنساويين في القرن الثامن عشر



الانتشار أيضاً بين بقية طبقات الأمة الى أرفعها وان كان فاسداً بعيداً عن الصواب. وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا. وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية لأن الافكار العامة لا تأتيهم دائماً الا من أفكار عالية تخلف عنها أثرها في البيئة التي ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعات بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد في تغييرها. ثم يبثونها في الجماعات وهذه تضاعف التغيير. ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية. وعلى هذا يكون العقل هو الذي يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد. فقد تنفى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير تراباً ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الافكار التي أوجدوها

### ٣

#### النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التي بثت في الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهي باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ للنفوذ قوة لا تقف أمامها قوة أخرى. وكل ساطة سادت في الوجود سواء كانت سلطة الافكار أو الرجال فهو السبب في قيامها وسيادتها. والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة. ولذلك لم يكن من السهل تعريفها. وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالأعجاب أو الرهبة. وربما كان الاثنان أصلاً له في احوال كثيرة. الا أنه قد يوجد بدونهما. مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم. ودليل ذلك ان أكثر من نشعر بنفوذهم فينا هم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا. كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير في النفوس وان كان مما لا يعجب به كالألهة المنغوليين الذين يوجدون في معابد الهند التي تحت سطح الارض

ويمكن أن يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولى  
بها على العقول. وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراماً.  
 ولا يمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور . الا انه  
 لا بد أن يكون من جنس الاجتذاب الذي يحدث في نفس الشخص النائم نوما  
 مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة في العالم اذ لولا هو ماساد الآلهة  
 والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها في قسمين . النفوذ المكتسب والنفوذ  
 الشخصي . فالاول هو الذي يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته . وقد يكون  
 منفصلاً عن النفوذ الشخصي وأما النفوذ الشخصي فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع  
 الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

وأكثر النوعين شيوعاً هو النفوذ المكتسب أو العرضي فهو يثبت للرجل  
 بمجرد كونه يشغل مركزاً أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له  
 قيمة من نفسه فللجندي في لباسه وللقاضي في زيه الرسمي نفوذ ما ارتديا لباسهما.  
 ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة<sup>(١)</sup>

ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكى كيفما  
 اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب اذا رأى اميراً أو عظيماً من الشرفاء  
 ويكفي أن يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء  
 والنفوذ الذي أشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذي يكون  
 للأفكار أو الادبيات أو الفنيات وغير ذلك وهو في غالب الاحوال ناشئ

(١) للالقاب والاوزمة والشارات تأثير في الجماعات في كل بلد حتى التي  
 بلغ فيها استقلال الفرد وحرية رفع الدرجات . واني أنقل هنا جملة غريبة من  
 كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا لنفوذ بعض العظماء في انكلترة قال :  
 « لاحظت مراراً ان اجتماع أحد الحائزين لقب (بير) مع اكبرهم عقلاً وتميزاً  
 يحدث في نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراناً من نوع خاص . فمتى كان له

من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الآداب والفنون الا تكرار رأى سبق  
ولم يعارضه أحد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ماقرأ في المدرسة ووجدت  
بذلك أسماء وأشياء لا يجراً أحد على الحديث فيها فما لا شبهة فيه ان مطالعة  
« هومير » تورث قراء هذا الزمان مللاً شديداً الا انه لا يجراً أحد على القول  
به و « البارتيون » أصبح اليوم خرابة تراكت فيها الانقاض ولا فائدة منها .  
الا أن نفوذه لا يزال قويا حتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان في  
القدم محفوفاً بابهته وفخامته فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الانسان يرى الشيء  
على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائماً والافراد غالباً الى آراء حاضرة في جميع المباحث وانتشار  
هذه الآراء غير مرتبط بما اشتمت عليه من الصواب أو الخطأ بل مرجعه  
ما لها من النفوذ

نتقل الآن الى النفوذ الشخصي وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة  
تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيهبون بها نفوس  
من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم في المنزلة بين أمتهم ولم يكن  
لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم  
واولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المقترس أو امر مروضه . وان كان  
في استطاعته اقتراسه بالسهولة لو أراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى

من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل أن يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه  
كل شيء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بمقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جندهم  
فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر في العينين بريق غير معهود . اللوردية في دمهم  
كالرقص عند الاندلسي . والموسيقى عند الالماني والثورة عند الفرنسي .  
شهورتهم في الخليل وشكسبير أقل من شهرتهم في الشرفاء وارتياحهم وتيهم لهؤلاء  
أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم في رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك و نابليون . وهو السبب في تمكّنهم فانما  
تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لا دخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان  
يزول اذا بحث فيه

كان أولئك العظماء ذوى قوة أخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هي السبب في  
شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلاً ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعه  
وسلطانه . الا انه كان له شيء منه يوم لم يكن له شيء من الساطة ولم يكن معروفاً  
لدى أحد فلما ترقى الى رتبة لواء ( جنرال ) وكان لا يزال مجهولاً تهمد اليه من  
كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب في بلاد ايطاليا فوجد نفسه  
بين لوائت عتاة أشداء وكانوا قد أجمعوا أمرهم على الانحياز له في المقاتلة لاعتبارهم  
ايه دخيلاً بينهم . ولكنه ما علم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام  
ولا اشارة ولا وعيد بل بأول نظرة من ذلك الذى قدر له أن يكون من العظماء  
واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث  
النعمة وكان بينهم اللواء « اوجيرو » وهو جندى عظيم الجثة غليظ الطبع . مختال  
بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم  
ان سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة « باراس » ولواء الشارع ونعته بالدب  
لانه كان يحب التفكير منعزلاً وذا سمعة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال  
فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فأبطأ نابليون في الخروج اليهم وبعد  
زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه واخبرهم بنياته وانفذ اليهم اوامره  
واشار اليهم بالانصراف اما « اوجيرو » فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه  
الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله ( مسينا )  
ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب في قلبه وانه حائر في التأثير الذى اخذه به  
اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح

في اعين الجماعات مساويا للالهة عند المتعبدين اتفق ان القائد « فاندام » وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله ( اوجيرو ) قصد ذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد ( اورنانو ) فقال الاول للثاني وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون ( ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان في نفسى تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لترانى مع كوني لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذنى الرعدة كالطفل الصغير ويخيل الى انه قادر على ادخالى في سم الخياط واحراقى بالنار ) وقد كان لنا نابليون مثل ذلك التأثير في جميع من يقترب منه (١)

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب في الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف أنه افتتح ثانية بلاامهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وأمامه جيوش تلك الامة المنظمة وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه أن يفعلوا فلن تكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته اكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على انه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا اوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة في هذا الموضوع فمنها انه انتهر ذات يوم ( بونيو ) وسط مجالس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقرب منه نابليون وقال له ( انا اب اليك رشدك ايها الابله الكبير ) . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال ( بونيو ) ( علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف ) . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس اذ يجعلها تخضع خنوع الذلة والصغار . وتبين درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصاحون الا حشوا للمدافع

وكتب القائد (ولسلي) في ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد  
الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة (الب)  
الصغيرة التي كانت كل ما يقدر ان يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب  
نظام الادارة الفرنسية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير أن  
يريق قطرة دم لواحد من أهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل  
في الدنيا واعجب منه ما كان له من التأثير في حلفائه أثناء هذه الحركة الطويلة التي  
ختمت فيها حياته العمومية فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم  
لولا المقادير

مات نابليون ولكن نفوذه بقى حياً بعده أو صار ينمو وتأثيره هذا هو  
الذى حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها  
نحن أولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيله من جديد وذلك برهان على أن خياله لا  
يزال قوياً في النفوس . اسىء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على  
البلاد غارة وغارة انك في حل مما تصنع ما دمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء  
ما تحمى به ذاك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال  
والحق انى اخترته عمداً لا بين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الكبر . وقامت  
المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ في الجماعات ما كنا  
لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العسكرى والرهبنة الدينية دون  
سواها . بل يجوز ان يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً .  
ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سبيتوارته الخلف عن السلف  
جيلا بعد جيل . وهو الذى نراه في تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه  
البيسطة كما غير طرق المواصلات التجارية بين الأمم يوم ان فصل بين القارتين  
وقد كان السبب في نجاحه ما اوتيته من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذى

كان ينفذه الى نفوس مخالطيه • كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد  
فيهم انقلبوا برأيه معجبين • واذا خاطبهم اسكرتهم عنذوبة القول فاصبحوا  
بعد النفور احبة صادقين ولقد انقرد الانكليز بالشدة في معارضته فلما ظهر في  
بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين • ثم مر بمدينة ( سوئمتون ) فدقوا النواقيس  
فرحاً بمقدمه وهم يفكرون الآن في اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الدهرين •  
قامت في وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل  
وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملاً  
جديداً ففكر في الذهاب من السويس الى باناما • وشرع في العمل بالوسائل نفسها  
لكن الشيوخوخة كانت قد اقبات • واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل  
بذروتها السماء • هنالك استعصى الجبل • وحم القضاء • ونزلت الكارثة فهدمت  
صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان في حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف  
يموت • بلغ الرجل في المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال • وانزله قضاة امته  
الى اخس دركات المجرمين فلما مات مرت جنازته كأنها تشيع نفسها بين الجماهير  
وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا  
عن اعجابهم به كما يقع لأعظم الرجال (١)

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة ( نوى فراى بريسه ) النمساوية بمدينة  
( فينا ) مقالة في مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جدية بالامعان ولذلك  
نقلها للقراء قالت ( لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذي  
يشير الحزن والاسى بعد الحكم على ( فرديناند دولسبس ) لانه اذا كان فرديناند  
دولسبس نصاباً فكل امل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من  
اهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار • ولسقوه  
الرحيق في حجرة آلهتهم التي كانوا يعبدون لأنه غير وجه الارض • واتى من  
الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق في الوجود

(١) هو الذي اكتشف امريكا

الأمثلة التي قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا أردت ان تعرف ماهية النفوذ مفصلاً وجب ان تضع تلك الأمثلة في أعلى السلم ثم تتدرج من منشئ الديانات ومقيمي الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذي يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها في جميع أركان المدنية من علوم وفنون وآداب . وترى النفوذ أول مؤثر في تحصيل الاعتقاد . فالناس

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس لأن الامم لا تنفك تسأل عن اسم الذي اجترأ غير هيباب فحط من قدر عصره . وألبس طاوية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجدداً وخياراً لمعاصريه

ألا فليكنفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين في مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم في حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بأنفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين الا انه لا حذر لنابع اذ لو كان حذراً ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذي هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس أن تغضب من آداب الفوز والانتصار فلما أفلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما أدركه الفشل أمام صخور ( كورديلير ) كان نصاباً حقيراً ، ان هذه الاحرب تقوم بين الطبقات في الامم يثيرها حقد الموظفين الذين ألغوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاماً ممن يصبو الى المجد والمعالي ، ولقد يحار مشروع هذى العصور امام تلك الافكار العالية التي يولدها النبغاء ، والعامه في ذلك أقل فهما وأدنى ادراكا ، لكن من السهل على الافوكاتو العمومى اقامة البرهان على ان ستانلى من القنلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له مايشتهى ولاأم الخطىء الهبل



يقلدون ذا النفوذ عمداً أو بحض الفطرة سواء كان انساناً أو رأياً أو شيئاً  
 آخر . ويتولد في أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون  
 عما به يشعرون . ويكون التقليد في الغالب فطرياً لذلك يبلغ حد الكمال  
 والاتقان . ومن ذلك ان مصورى هذه الايام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات  
 الالوان الباهتة والازياء العابسة التي تمثل أناساً من أهل الفطرة الاولى . وهم  
 لا يشعرون من أين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين أوجدوه لأنفسهم  
 وفاتهم انه صنع أحد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك  
 الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها في فن التصوير . ومنهم من قلدوا  
 أحد المشاهير فجعلوا يكثرون في مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع  
 انهم لا يرون هذا اللون منتشراً في الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين  
 عاماً . والواقع انهم متأثرون بفعل أستاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له في ذلك  
 التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريباً . وأمثال المصورين  
 كثيرة في جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فتمى نجاح  
 الأمر في أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن  
 من العقول والدليل على ان النجاح أقوى عامل في تحصيل النفوذ ان هذا يذهب  
 بذهاب ذاك . فالناس يهللون في المساء لبطل كل بالنصرو يسخرون منه في الصباح  
 اذا قلب له الزمان ظهر المحجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأي في صاحبه اذا  
 تولته الخيبة فتراه الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها أمام  
 سلطانه الذي لم تعد تعترف له بشيء منه . هكذا كان نفوذ روبرت شيددا  
 يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه  
 بعض الاصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته . وشيعته  
 الجماعة الى المشنقة وهي تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياها . ومن  
 عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه • لكن ذلك لا يتم الا بالتدرج • وهذه الوسيلة هي ضمن الوسائل لاضاعته وما من اله أو انسان دام له النفوذ زمنا طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه • انما تعجب الجماعات بمن يترفع عن مقامها

## الفصل الرابع

### حدود تقلب معتقدات الجماعات وافكارها

(١) في المعتقدات الثابتة — في عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — في أن هذه المعتقدات هي التي تهتدى بها المدينة — في صعوبة ازلتها — في أن التعصب أحد فضائل الأمم من بعض الوجود — في ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر في انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — في ان الافكار التي لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — في أن تغيير المعتقدات والافكار يظهر في أقل من قرن واحد — في حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه الغير — في ان زوال المعتقدات العامة في العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد في كثرة تغير الافكار — في أن أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — في ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما في الزمن السابق — في أن تشعب الافكار في الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

### في المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أي الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام •

فمن الاولى ما هو ثابت أو لا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذي بيننا وبين الطوفان . ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو الربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفي فيها الخواص الاصلية على غير المتأمل وكذلك الحال في الخواص الادبية . فمن اخلاق الشعب ما هو ثابت لا يغيره كروور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير . ومن ينعم النظر في معتقدات الامم وأفكارها يرى دائماً في اخلاقها أصلاً ثابتاً ترسب فوقه أفكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الاول المعتقدات الدائمة التي تعمّر عدة قرون واليها ترجع مدنية الامة كلها . كالاقطار التي سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافكار الاصلاح « البروتستانتية » وكالجنسية . والافكار الديموقراطية والاجتماعية في أيامنا . والقسم الثاني يشمل الافكار الوقتية المتغيرة . وهي مشتقة في الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب في الجيل الواحد كالنظريات التي تسترشد بها الفنون والادب في أوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة « الانشأ » <sup>(١)</sup> ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية . وهكذا . وتلك الافكار كلها سطحية سريعة التغير كالبديء ( المودة ) فنلها كمثل الامواج الصغيرة التي تظهر وتختفي من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جداً . وقيامها وسقوطها في كل امة ذات

تاريخ يمثلان اعظم دور في حياتها . ولا قوام للمدنية بدونها ومن السهل جداً ايجاد فكر وقفي في عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم في نفوسها كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد يمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً الا بالثورات العنيفة بل أن الثورة لا تؤدي الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها اثر المعتقد في النفوس . فهي تصلح لكسح تلك

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائماً بما جرى عليه

السلف في فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

البقية التي تكاد تكون في حكم المهمل لولا أن سلطان العادة يمنع من الاقتلاع عنها بالمرّة . فالثورة التي تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تجديد اليوم الذي يندك فيه أحد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث في قيمة هذا الاعتقاد لأن كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير أن المنظمات التي اسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل الا ببطء وان تززع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بني عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل أمة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لا بد لها عاجلاً من تغيير جميع اركان حضارتها فهي تغير وتبدل فيها حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش في فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هي دعائم الحضارة التي لا بد منها وهي التي ترسم للافكار

طريقها الذي تسير فيه وهي التي توحى بالايان وتفرض الواجبات

أدركت الأمم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى أن يومزواها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة التعصبين فسادوا على الدنيا أجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم في دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو أرقى الفضائل في حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية ما أحرقت أهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد في النفوس وما مات الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم الا لانهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لأجل تلك المعتقدات وما اضطرت الدنيا المرّة بعد المرّة الا للدفاع عنها . وما مات الملايين في ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون في مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنياً طويلاً وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فإنه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الأمم الأوروباوية دانت لا قاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرناً . والمتأمل في تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج<sup>(١)</sup> كأقاصيص (مولوخ)<sup>(٢)</sup> هكذا بقي العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بأن الهماً أذاق ابنه عذاب الهون انتقاماً ممن عصاه من خلقه . ولم يجلب بخاطر أعظم الرجال عقلاً وادراكاً مثل (غاليليه) و (نيوتن) و (لايبنيز) انه يجوز النظر في حقيقة هذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن أيضاً على ان العقل محدود بمحدود مخجلة

٥ ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها

ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الا في تحقيقها . وواضعي القوانين الا في الأخذ بها والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب الا في تمثيلها على صور شيء

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين في القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها .

(١) اقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملاً فقد اوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرناً هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجة وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائماً ليتلقاها (م)

من هذا يتبين ان الفضل للعقائد العامة في احاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذي يهدى الناس في سيرهم انما هي الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهي الحاكمة على أعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فاننا لانفكر في اخلاص منها . اذا الاستبداد الحقيقي هو الذي يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذي لا يتمكن المرء من محاربهه . فلقد كان ( تيبير ) و ( جنكيز خان ) و ( نابوليون ) جبارين مستبدين ولكن استثنى « موسى » و « بوذا » و « عيسى » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم في القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبعد سطوة الجبار ولكن ماذا ينفع الكيد في عقيدة استقرت في النفوس . قاهت حرب عنيفة بين الثورة الفرنسية والدين المسيحي وكانت الجماعات في ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هي التي دارت عليها الدائرة انما الجبارة الذين سادوا في البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التي أوجدتها الامم لنفسها ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفى واذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذي يكون سبباً في عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى أن السعادة التي وعدت بها الديانات لا تتحقق الا في الدار الباقية فلم يكن لاحد أن يمارى في تحقيقها . وأما السعادة التي وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب أن تتحقق في الحياة الدنيا ومتى شرع في ذلك بان ان الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذي يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب في ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التي سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

### فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التي شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والآراء التي تتجدد وتزول دائماً . فمنها ما يدوم يوماً واحداً • وأهمها لا يدوم أكثر من الجيل الذي نشأ فيه • وقد قدمنا ان التغيير الذي يطرأ على هذه الافكار صوري أكثر مما هو حقيقي في الغالب • وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذي توجد فيه • ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسي فأوضحنا ان أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرعى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية أو الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود أسماء هذه المنظمات وانها عند أمم أخرى ودلالاتها على شيء آخر وبأن وضع الاسماء للافكار والبس الشيء ثوباً يريه في صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء • كان أهل الثورة الفرنسية متشبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم<sup>(١)</sup> وارديتهم واجتهدوا في تقليدهم في نظاماتهم وأحوالهم ومع هذا لم يصيروا رومانين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية ووظيفة الحكيم هي استخلاص ما بقي من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز في معمعة الافكار المتغيرة ما يرجع منها الى روح الشعب وعقائده العامة واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء • والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة أو الدين أو الفنون أو الآداب • لانا اذا نظرنا في تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ أعني ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا في السياسة وأما في الدين  
فإنها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت الى الكشلكة  
الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله  
قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك  
وانكروا الله والسلطان أمسوا خداما خاضعين لنابوليون • وأصبحوا يحملون  
الشموع والخشوع ملء جوارحهم في احتفالات الملك لويز الثامن عشر  
وما اكبر الانقلابات التى طرأت على أفكار الجماعات فى السبعين سنة التالية  
فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون • وكانوا فى  
أول القرن أعداء ماكرين وأغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا  
بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

وأسرع من ذلك تقلب الافكار فى الآداب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد  
بقواعد اللغة • وكنا طبيعيين وكنا صوفيين • وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى  
وكان الناس يتغنون باسم هذا الكاتب أو ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح  
حقوقه وردلوه

وإذا دققنا البحث فى هذه التقلبات التى يخال أنها حقيقية متأصلة فى النفس  
رأينا أن ما كان منها مخالفا للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم  
الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام  
الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لأنها معرضة  
لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير بأقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل  
أيضاً على عدم بقائها أنها تولدت من طريق الالتقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت  
بسرعة الرمل الذى يتكون اكداساً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم  
تعيده وهكذا

ولقد كثرت فى أيامنا هذه افكار الجماعات التى لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة اسباب  
الاول أن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى



الأفكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهدها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لرابطة بينها هي والماضي ولا يرجى بقاؤها في المستقبل

السبب الثاني أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب في أفكارها فالنتيجة أنها أصبحت أكثر حرية في اظهار تلك الأفكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الأفكار المتناقضة التي تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهي تموت قبل أن تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة في تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهي ضعف الحكومات عن قيادة الرأي العام

كان زمام الرأي في الزمن السابق ما هو في يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم . وأما الجرائد فأن وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأي وأما السياسيون فأنهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد اخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الدعر والاندھال فهم لا يثبتون في أى طريق يسلكون نتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالقات كما وقع أخيراً في المحالقة الروسية التي كانت حركة الرأي العام مصدرها الوحيد . ومن أعجب ما يشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقيصرة لنظام الاحاديث<sup>(١)</sup> ليصبحوا بأفكارهم ويعرضوا آراهم في أمر من الامور الى حكم الجمهور . قالوا فيما مضى ان السياسة

(١) يشير الى ما ألفه الناس في هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء ونشر أحاديثهم في الكتب والصحف

ليست من الأمور التي تسيرها المشاعر وانا نشك في انه يمكن القول بذلك الان  
بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذي قبله والجماعات  
لا تعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر

وأما الجرائد فبعد أن كانت تقود الرأي العام كالحكومات اضطرت الى  
التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر شديد في الناس لكن ذلك سببه  
انها صارت مرآة لآرائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر . أصبحت الجرائد  
رسل أخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى أو تقرير مذهب بل هي تسير خلف  
اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم والا خسرت قراءها  
ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التي كان لها المقام الاول والتأثير القوي مثل  
( لوكونستيتوسيونيل ) و ( الديبا ) و ( السيكل ) وهي التي كانت تتلقى آباؤنا أقوالها  
كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض  
الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم  
جريدة تسمح مآلتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان  
لتلك الآراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرأونه أو نكتة  
يتفكحون بها وصاروا في ريب من كل رأى ونصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان  
وراءها طمعاً في ربح أو سعياً لمنفعة خاصة . بل ان أهل النقد أصبحوا لا يجروا ون  
على نشر كتاب أو رواية تمثل في المراسح فان النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا  
يجر اليهم نفعاً . أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو ابداء الآراء الشخصية  
فجعلت تقلل منه في عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب  
الجديد متبوعاً بسطرين أو ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر  
الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التي تشخص في الملاهي  
أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأي العام فالذي  
يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقي انما هو  
أثر ذلك في الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها

في السخط على أمر لم تكند تفرغ من التهليل له  
يفتح عن فقد ان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة  
تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشيء لا تظهر فيه لها  
منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالأشترابية فان حماة المخلصين من  
أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من  
التعليم فهم في شك من كل شيء أو هم كثير والتقلب  
التطور الذي تم من هذه الجهة في الخمس والعشرين سنة الماضية واضح .  
فقبل ذلك والعهد قريب كان للأفكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض  
اعتقادات أصلية . وكان للملوكي بمقتضى كونه ملوكياً افكار و آراء ثابتة في التاريخ  
وفي العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهورياً افكار و آراء تناقض الأولى  
على خط مستقيم . الأول يعتقد أن الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد  
الضد تماماً . الأول يرى من الواجب عليه اذا تكلم في الثورة أن يغضب وينفر  
والثانى أن يعجب ويبالغ في التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز  
ذكر اسمه الا مقروناً بالخشوع والاجلال مثل ( رويسبير ) و ( مارات ) أو  
متبوعاً بالترذيل والامتهان مثل ( قيصر ) و ( اوغسطس ) و ( نابوليون ) .  
وعم هذا المذهب السخيف في التاريخ حتى تقشى في مدرسة ( السربون ) نفسها (١)

(١) يوجد في هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين في  
مدارسنا غاية في الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد الناشئة عن طريقة  
التربية في المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنسية  
لاحد مدرسى التاريخ في مدرسة ( السربون ) المذكورة قال « ان الاستيلاء  
على ( الباستيل ) عمل من أكبر أعمال تاريخ الأمة الفرنسية بل تاريخ أوروبا  
كلها لانه كان فاتحة دور جديد في حياة الامم » وقال عن ( رويسبير ) ( أن  
استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين وتقوذاً أدبياً وكان اشبه بسلطة روحية  
عليها في يد رجل من الاخيار ) ( صفحة ٩١ و ٢٢٠ )

ليس لفكر ولا لرأى في هذه الايام وقع في النفوس لكثرة المناظرة والتحليل  
 مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيراً للبقية والذي ينفرد به أهل هذا الزمان  
 هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً

على انه ينبغي أن لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة في انه منذر  
 بانحطاط الامة لانه من المحقق أن تأثير أهل الخيالات والرسول وقواد الجماعات  
 وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود  
 والنقادين ومن لا يهتمون بشيء لكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن راى واحد  
 من النفوس والجماعات على ما هي عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث أهله  
 أن يصيروا مستبدين استبداداً يذل له كل ما في الوجود ويغلق باب حرية الافكار  
 وحرية النقد زمناً طويلاً . لا يقال أن من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق  
 لين الملمس لان طبعها قلب فهي هوائية سريعة الغضب والانتفعال . فاذا قدر  
 لحضارة أن تقع في يدها اصبحت هدفاً للطوارئ والمصادفات وقصر بذلك  
 اجلها . وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فأنما يكون ذلك من  
 شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

# الباثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

## لفصل الأول

أقسام الجماعات

أقسام الجماعات العامة — أنواعها

- ١ — الجماعات المختلفة العناصر — أوجه اختلافها — تأثير الشعب — في ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية — في ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية
- ٢ — الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الافتاء والطوائف والطبقات

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغي أن نبين الصفات الخاصة التي تنفرد بها المجامع عن بعضها اذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك

ولنبدا بقول موجز في تقسيم الجماعات

فأولها الجمع مطلقا وأدنى مراتبه ما كان مؤلفاً من أفراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم الا ارادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبررين مختلفي الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها المجموع التي احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت

بأن صارت شعباً واحداً . ولهذا المجموع في بعض الاحيان الصفات الخاصة  
بالجماعات الا ان هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة  
فاذا اجتمعت في هذه المجامع بقسميها العوامل التي ذكرناها في هذا الكتاب  
صارت جماعات منظمة أو نفسية وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية

(١) الجماعات التي لا اسم لها (كجماعات الطريق العام)	أولاً الجماعات المختلفة العناصر وفيها
(٢) الجماعات التي لها اسم خاص (كالعدول المحلقين والمجالس النيابية وهكذا)	

(١) الافناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا)	ثانياً الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها
(٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا)	
(٣) الطبقات (كجموع الأواسط وجموع أهل الريف وهكذا)	

واليك قولاً موجزاً في بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الاول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه المجموع هي التي شرحنا صفاتها في هذا الكتاب وهي التي تتألف من  
أفراد أياً كانوا وكيفما كانت حرقهم ومهنتهم وعقولهم ونحن الآن نعرف انه  
متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعية مع  
أحوالهم النفسية الفردية اختلافاً عظيماً وان العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لانه

لا تأثير له في الجماعات وان الذي يؤثر فيها انما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاماً

وهو الشعب وقد ذكرناه مراراً وقلنا انه أعظم المؤثرات التي تنبعث عنها أفعال الناس ونقول ان له كذلك أثراً ظاهراً في صفات الجماعات فالجماعة المؤلفة من أفراد أياً كانوا وهم انكليز مختلف كثيراً مع الجماعة التي تتألف من أفراد أياً كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلاً

أشد مظاهر الافتراق الناشئ عن الوراثة العقابية في كيفية الشعور والنظر في الامور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب - وذلك نادر - كيفما اتحدت في الظاهر المنافع التي اجتمعوا لأجلها. حاول الاشتراك يكون عقد مؤتمرات تضم نواباً عن جميع العمال في كل أمة فأدى ذلك دائماً الى خلف عنيف . والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد تستوى في ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهي تميل بطبعها الى حصر السلطة وجمعها في يد واحدة والى من يجمع تلك السلطة في يده . وأما الجماعة الانكليزية أو الامريكية فانها لاتعرف الحكومة ولا تستعين الا بهمة الافراد الذاتية . أول ماتهم له الجماعة الفرنسية المساواة . وأول ماتهم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . ويقدر اختلاف الشعوب تحتلف المذاهب الاشتراكية والديموقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائماً روح الجماعة فهي لها كالدائرة المنبوعة التي تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغي أن تقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة في الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هي الهمجية وتسلبها رجوع الى الهمجية . ولا يخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التي لا يحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التي لا اسم لها كجماعات الشوارع ثم الجماعات التي لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية والذي يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً في انفعالهما هو ان الاولى لا تشعر بتبعة ما نتج عن أعمالها

بخلاف الثانية فإنها تقدر تبعة عملها كما ينبغي

القسم الثاني

الجماعات المؤتلفة العناصر

تتفرق الجماعات المؤتلفة العناصر الى افناء وطوائف وطبقات فالافناء أول  
المراتب وهي تتألف من أفراد مختلفين في التربية والحرفة والبيئة أحياناً ولاجامعة  
تجمعهم الا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية  
والطوائف أرقاها وهي تتألف من أفراد متحدين في الحرفة فهم متشابهون  
في التربية والبيئة كجماعة الجنود وجماعة الرؤساء الروحانيين  
والطبقات هي التي أفرادها من مناسيء مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد  
كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه في حالة  
المعيشة والتربية كطبقة الاواسط في الامة وطبقة الزراع وهكذا  
ولما كان بحثي في هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن  
ينبغي ان افرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتاباً خاصاً فلا أطيل في بيان  
صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض أنواعها مثلاً للبقية

## الفصل الثاني

الجماعات الجارمة

يجوز أن تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفياً — في ان  
أفعال الجماعة لاشعورية محضة — أمثلة اشقي — روح جماعة شهر ستمبر —  
أفكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

بعد أن يمضى زمن على الجماعة وهي في هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها  
آلة صماء غير شاعرة يحركها الالتقاء في نفسها ولذلك يتعذر تأييدها فلسفياً كيفما



كان الحال وإنما جرئت في الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لاني  
أقرأه في بعض كتب علماء النفس الحديثة . نعم ان بعض اعمال الجماعات تعتبر  
جرائم من حيث هي لكن كما يعتبر عمل النمر الذي يلتهم الهندي بعد أن يكون  
قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه

تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى . ويعتقد الذين ارتكبوها  
من أفرادها انهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهذا ليس شأن الجناة في  
الاحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلى بيان  
فن أمثلة ذلك قتل موسيو (لوني) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال  
انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار  
اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك  
يضرب عنقه وثالث يربطه في ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه  
فرطت منه رفسة أصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح أحدهم أن يقطع  
المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة قال راوى الواقعة « وكان المضروب  
طباخاً خالياً من العمل ويقرب من أن يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر  
ما ذا يجري هناك . فلما سمع الاجماع ظن ان الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه  
ينال وساماً اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفاً ضرب به عنق المدير وكان  
غير مشحوذ فلم يقطع فألقاه وأخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض اسود  
واستعان بخبرته في تقطيع اللحوم فساعده الحظ وأتم عمله »

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة فقد انتقدت هنا الى  
تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل انه اتى عملاً شريفاً اعتقاداً مكنه من  
نفسه ذلك الاجماع . وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس  
كذلك في حكم علم للنفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهي بعينها الصفات التي شاهدها  
في غيرها . من قابلية التأثر . والتصديق . والتقلب والتطرف في المشاعر طيبة

كانت أو رديئة . والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك  
 وستظهر لنا هذه الصفات كلها في احدى الجماعات التي تركت في تاريخنا اقباح  
 ذكرى محزنة وهي جماعة شهر سبتمبر<sup>(١)</sup> وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى)  
 شبه عظيم . واني أنقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذي استخلصها  
 من المفكرات التي كتبت أيام حدوثها  
 لا نعرف بالتحقيق الأمر والمعرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء  
 كان هو (دانتون) كما هو المظنون أو غيره<sup>(٢)</sup> فالذي يهمننا هو انه وجد  
 تحريض قوى تأثرت به الجماعة التي وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم اشتات فهي تمثل الجماعة  
 المختلفة العناصر اكبر تمثيل اذ لم يكن فيها من الغوغاء الا نفر يسير والباقون من  
 اصحاب الحوانيت والصناع في كل حرفة وكل مهنة من حدائين وبقالين وحلاقين  
 وبنائين ومستخدمين وسامسة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذي وقع عليهم .  
 كالطاهى الذي مر ذكره . وكلهم يعتقد انه قائم بواجب وطنى . وقد قاموا  
 بعملين . فكانوا قضاة وجلادين . ولكنهم لم يروا انفسهم من الجناة أبداً . بل  
 وقر في نفوسهم انه واجب من اكبر الواجبات . وأول ما بدأوا به أن شكوا  
 محكمة . هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها . ذلك أن المحكمة  
 رأت عدد المتهمين كبيراً فقررت ألا تقتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك  
 وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون في نظر كل وطنى جناة بمقتضى صناعتهم . وان  
 يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص . وأما الباقون فيحكم عليهم

( ) هي كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنسية في باريس يوم ٢ سبتمبر  
 سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح أصله طبيب انقلب  
 صحافياً دمويًا صرفاً فكان يطلب اعدام مائتين وسبعين الف نفس مدعيًا ان في  
 ذلك فداء الوطن

(٢) هو (مارات) على ما ذكر في معاجم التاريخ كما تقدم

بناء على سمعتهم أو شهرتهم . فلما اطأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت  
تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناها من  
قبل . والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً في المجامع . الا أن الغرائز الهمجية لا تمنع  
من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن في الجماعات . ولذلك كان يوجد في تلك  
الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ في شدته تلك القسوة الهائلة .

كان لأولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك أن  
احدهم علم أن المسجونين لم يدوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع في قتل  
السجان لولا شفاعاة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التي أقاموها واحداً من  
المتهمين فرحوا وهللوا وانهلوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقاً طويلاً ثم انقلبوا  
يقتلون غيره اكداساً . كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم . يغنون ويرقصون  
ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهي فرحة قتل الشرفاء . وكان لهم عدل من  
نوع خاص يدلك عليه أن احد الموكلين بالتقتيل شك من ان النساء لا يشاهدن  
القتل لبعدهن عن مكانه . وان القليل من الناس هو الذي ينال حظ ضرب  
الشرفاء . فصوب الجميع شكواه وقرروا ان يمشى المتهمون الهويناء بين صفين  
من القتالين . وأمروا هؤلاء أن لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول امد  
العذاب . وكان فريق يأتي بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون اجسامهم  
مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعدين  
فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الامانة لا تزال ملازمة للقاتلين فكانوا يظهرون  
من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئاً من تقود  
المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التي انفردت بها روح الجماعات تظهر في أفعالهم . من  
ذلك انهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين أو الالف وخمسمائة العدو للأمة  
لاحظ بعضهم ان السجن الأخر تضم أناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم

فسارعت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأى . وكان من فى السجون الأخر أناساً من الشحاذين والهمل ( المتشردين ) والاولاد فرأت الجماعة انه لا بد من وجود أعداء للأمة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسهم اذ قال بعضهم « لا بد انها متغيظة من وجودها فى السجن . ولو تمكنت لوضعت النار فى باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك . بل قالت . اذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة . وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقالوا فى قتلهم انهم اذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم .

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل فكروا فى الراحة واعتقدوا انهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها . ورجعوا الى حكومة ذلك الزمن ان تكافئهم ومنهم من طلب وساما وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتى قدمناها وسرى كثيراً غيرها مادام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

## الفصل الثالث

Chapter III

### العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول - فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم - كيف يتأثر العدول - ضعف تأثير الدليل العقلى - طريقة الاقتناع التى استعملها أشهر المحامين - الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها أو التى يقسون من أجلها - فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع أنواع العدول فى هذا الكتاب رأينا أن

نقتصر على اهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم أحسن مثال يمثل  
 به للجماعات المختلفة العناصر التي لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التي  
 لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول .  
 والانصياع الى القواد . وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا في هذه الجماعات بعض  
 الغلطات التي يرتكبها من لم يكن خبيراً بعلم روح الجماعات لما في ذلك من الفائدة  
 نجد اولاً في العدول المحلفين من حيث القرارات التي يصدرونها مثلاً حسناً  
 يبين ان تأثير الاذكياء الذين يوجدون في جماعتهم ضعيف لما تقدم من انه لا تأثير  
 للعقل المستنير في رأى الجماعة اذا كان في موضوع غير فنى . وان رأى جمع من  
 العلماء وأهل الفن في موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيراً  
 مع رأى جمع من البنائين أو البدالين في ذلك الموضوع . كانت الحكومة قبل  
 سنة ١٨٤٨ تعنى في كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم  
 من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وامثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً  
 من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب  
 الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة  
 العدول وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من أعداء هذا النظام واليك  
 ما كتبه موسيو ( بيراردى جلاجو ) أحد رؤساء محاكم الجنايات في مفكراته  
 « أصبح الآن اختيار العدول في يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا  
 ويقبلون ذلك على حسب أميالههم السياسية وأحوال الانتخابات . وصارت أغلبية  
 العدول من تجار أقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ومن مستخدمي بعض  
 المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه . لان  
 جميع الافكار تبرز بجميع المهن في وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين  
 يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث في الايمان . ولأن الطبقة الدنيا لا تخلو من  
 أهل المروآت »

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها . ولا

غرابة في هذا الضعف لان المحامين والقضاة لا يعرفون في الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ما ذكره الرئيس المشار اليه من أن ( لاشو ) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب . وما كان لغيرها أن يقيم هذا البرهان . على ان ذلك العمل كان عقيماً حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة في باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو ( جلاجو ) فلا هي أحسن مما كانت عليه ولا هي اردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلاً فهم كما قال أحد المحامين « لا يثبتون امام امرأة ترضع طفلها أو امام صغار يتامى اذا نظروا اليهم »

قال موسيو ( جلاجو ) : ويكفي أن تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التي يخشون هم منها . وهذه الجرائم هي التي تهم الهيئة الاجتماعية - ورحماء بمرتكبي الجرائم التي مصدرها الغيرة والحب وهكذا .

فقما يقسون على البنات الامهات اللاتي يقتلن مواليدهن ولا على البنات يخذعها الخادع ويهجرها فترميها بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لاخطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وانه مادام القانون لا يحمي البنات التي هجرها من خدعها يكون تقع جنايتها أكبر من ضررها لأن في ذلك للخداع مزدجراً (١)

(١) مما تجب ملاحظته ان هذا الفرق الذي جاء به العدول لا عن قصد بين الجرائم المضرة بالهيئة والتي لا تكاد تضرها لا يخلو من صواب اذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقاً . غير ان الغالب على واضعي قوانيننا وعلى قضاتنا هي فكرة الانتقام التي كانت سائدة في زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل في قضاتنا ان الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون ( بيرانجيه ) الذي يبيح إيقاف التنفيذ

والعدول كبقية الجماعات يهرها النفوذ . لاحظ الرئيس ( جلاجو ) انهم  
ديموقراطيون في جمعهم شرفاء في عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة .  
والشهرة والاستعانة . بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به  
كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى في يد المتهمين

أراد بعضهم بيان الطريقة التي ينبغي استعمالها في هذا المقام فوصف احد  
محامي الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه أمام محاكم الجنايات ومما قاله :  
أول ما يجب على المحامي اللبيب الاهتمام به تعتمد التأثير على شعور العدول .

والاقلال من التقرير والاستدلال أو اختيار السهل البسيط من الأدلة العادية  
كما هو الشأن مع بقية الجماعات ( كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين  
مناسبة الوقت فكان يقرأ في وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة  
والتجارب ليعرف ما ينبغي بعد ذلك وكان يتفرس أولاً بالعدول الذين صاروا  
من جانبه ويخطو معهم في خطابه الخطوة الاخيرة التي تمكنه من انجيازهم اليه  
ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه ويجهد في استكناه سبب ميله عن المتهم  
وهذا أدق ما في عمل المحامي . لان الاسباب التي تبعث الرغبة في الحكم على رجل  
بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلاً أم ظالماً )

ولقد تلخص فن الخطابة في هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب في عدم  
تأثير ما حضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لأثره  
في نفوس السامعين

وليس من الضروري أن يكسب الخطيب ميل جميع العدول . بل يكفي

فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع ان جميع القضاة يعلمون  
جيداً ان تنفيذ العقوبة الاولى يجر حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل  
ذلك مبالغ فيه م) وكأني بالقضاة يعتقدون انهم اذا أفلتوا محكوما عليه لا  
يكونون قد انتقموا للأمة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم  
الانتقام

اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكون رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك في كل الجماعات . قال المحامى الذى مر ذكره «عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أو اثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقتناع البقية »

فالواجب اذن اقتناع هذين الاثنين أو الثلاثة باستعمال الحدق فيما يلقى فى نفوسهم . وأول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى اعجابهم لأن الرجل فى الجماعة اذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع . وقبل بالسهولة الادلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو ( لاشو ) الحكاية الآتية ( من المعروف عنه انه كان فى مرافعاته أمام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم أصعب مراساً من البقية وانهم أهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة فى الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقتناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلاً « سيدى الرئيس أسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى أمامنا فان الشمس تخدش عيني حضرة العدل السابع » فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع )

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع ان وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها (١) ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكننا أقمنا الدليل على ان قراراتهم فى هذه الحالة

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على أعمالها ومع ما أتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون ( الافراج ) الذى تتفخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا



لن تختلف مع التي تصدر الآن • وممنهم من يتذرع بالخطأ الذي يقع من العدول  
 فيذهب الى تبديلهم بالقضاة • ونحن لا ندري كيف غاب عنهم ان ذلك الخطأ  
 الذي بالغوا في نسبتته الى العدول انما سبقهم به القضاة • لان المتهم لا يمثل بين  
 يدي أولئك الا بعد اعتباره جانياً من كثير من هؤلاء • من قاضي التحقيق  
 ورئيس النيابة ودائرة الاتهام • الا يرى انه لو سلم الحكم النهائي عليه الى القضاة  
 بدل العدول فانتته الفرصة الوحيدة للوصول الى اظهار براءته • ان يخطئ العدول  
 فقد أخطأ القضاة من قبائهم • فالوزر على هؤلاء وحدهم في كل خطأ قضائي  
 مفزع كالحكم الذي صدر أخيراً على الطبيب ( فلان ) اذ اضطره أحد قضاة  
 التحقيق المعروف بقصر العقل لان شبابة تكاد تكون من البله اهتمته بأنه أسقط  
 حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا • ولولا ثورة الرأي العام وصدور العفو  
 عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة • ظهر في هذه  
 الحادثة ان خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم  
 عليه • وكان القضاة انفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفهم دفعهم الى  
 استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البريء • والحاصل انه متى كانت  
 الدعوى ذات أحوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين  
 = جميع الظالمين • ولكننا أقننا في كل مدينة قاضياً يتصرف في شرف أهل الوطن  
 وحريةهم كما يشاء • قويضى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة  
 المنفرة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه في اجرامهم •  
 وليس من يحاسبه على عمله • وله القدرة على ابقائهم في سجنهم ستة أشهر بل  
 سنة بحجة التحقيق ثم يخلى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار  
 يفعل ذلك بمقتضى ( أمر القبض ) وهو مساو ( خطاب السجن ) الذي عرفه  
 آباؤنا الاولون غير ان هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر  
 وأما الاول فهو اليوم في يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن أن يكونوا  
 الاكثر تهديباً والاكبر استقلالاً

الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لا اعتقادهم ان الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل • وليت شعري من يكون المخطئ الحقيقى حينئذ آعدول أم القضاة يجب أن نحرض على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن أن يقوم الفرد مقامها • وهم الذين يتيسر لهم وحدهم أن يخففوا من شدة القانون • فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس أعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ • أما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب • ولا يعرفون الا النص • وهم قساة بمقتضى صناعتهم • فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقير فوارت مولودها لكن العدول يشعرون بفطرتهم ان تلك الفتاة التى خدعت أقل اجراما من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه • وانها جديرة بكل عطف وحنان لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الاخرى • ولكنى لم أوفق الى معرفة حالة اكون متهما فيها بجرم وافضل القضاة على العدول ليحكموا فيها • لان لى بعض الامل فى البراءة أمام هؤلاء والامل ضعيف امام أولئك • حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولكن الثانية لا تلين أبداً

## الفصل الرابع

### جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب - طريقة اقناعها - الصفات التى يجب أن تكون للمترشح - ضرورة النفوذ - السبب فى أن العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم - سلطان الالفاظ والجمل على الناخب - صورة المناقشات الانتخابية - كيف يتكون رأى الناخب - سلطان اللجان - فى انها تمثل أشد صور الاستبداد - لجان الثورة الفرنسية - من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت

قيمه ضعيفة - في بيان أن النتيجة تكون هي بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين - في معنى الاقتراع العام عند كل أمة

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب أعنى المجامع التي تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة ولما كان عملها محصوراً في دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين لا يظهر فيها الا بعض الصفات التي تقدم بيانها . فالذي يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد . وسرعة الغضب . والتصديق . والسذاجة . ويرى في قراراتها أثر القواد وأثر العوامل التي مرّ ذكرها . أى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث في طريقة اقناعها لانا اذا عرفنا أنجع الوسائل في ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

أول صفة يجب أن يكون للمرشح هي النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتي اذا فقد الا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى أن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التي تؤدي الى النجاح كثيراً في هذا الباب

ولا غنى للمرشح عن النفوذ لأنه العدة الكبرى التي تمكنه من التسلط على النفوس بدون أن يتناظر فيه والسبب في كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا اختاروا في النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكي يضربوا به أحد العظاء كعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا الى مخالفته متخيلاً انه يصير بذلك سيدياً عليه لحظة من الزمان

الا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه في الانتخاب لأن الناخب يجب أن يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغي أن يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والاماني . فان كان عاملاً فكل ذم في معامه قليل . أما المترشح المزاحم

فانه يجب أن يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لا ثبات أنه  
 أخس الناس وأنه مجرم أثم . ومن البديهي أنه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك  
 فان كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال الى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل  
 أن يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل في النجاح  
 أما البرنامج الذي يحرره المترشح ببيان ما ينوي من الاعمال فينبغي أن لا  
 يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه حجة عليه . لكن يجب أن يطيل في  
 البرنامج الشفهي ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء اعظم الاصلاحات  
 فان ذلك يؤثر حالا في نفوس الناخبين وهو في حل منه آجلا اذ القاعدة المطردة  
 ان الناخب لا يبحث أبداً في هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التي كانت  
 السبب في انتخابه

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الاقتناع التي تقدم ذكرها هي في جماعات  
 الانتخاب . بقى علينا أن نذكر الالفاظ والجل مما بينا تأثيره السحري في النفوس  
 الخطيب الذي يعرف كيف يتصرف بها يمكنه أن يوجه الجماعة حيث يشاء . فمثل  
 ( رأس المال الدنس ) و ( أولئك المحتملين الادنياء ) و ( العامل الجليل ) و ( جعل  
 الاموال شائعة بين الجميع ) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان  
 كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق  
 لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة  
 كان نجاحه باهراً وفوزه محتماً . والذي أوقد نار الثورة الدموية في اسبانيا  
 سنة ١٨٧٣ إنما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعاني المضطربة التي  
 يفهم منها كل واحد حسب ما يشتهي . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك  
 نقلا عن أحد كتاب ذلك الحين قال « ظن المتطرفون أن الجمهورية الجامعة للسلطة  
 عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهورية  
 اتحادية من غير أن يعرف أحد من معنى ما أقر عليه . لأن الصنعة كانت قد  
 اخذت بلب الناس اجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا في طلاوتها وقالوا لقد قامت

في الارض مملكة الفضيلة والسعادة . وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) . وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى أنه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن أن النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة في امريكا . واخرون يرون أنه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم في البلاد . والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت وان الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون في برشلونه وفي الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة ولم يمتض الا قليل حتى أخذت الثورة تمتد في الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقية والسكك الحديدية لتقطع المواصلات بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الا نزعتم الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق في الاقاليم علاماته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح في كل صقع ونادى أما تأثير المعقول في جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى في اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شىء غير تناول التوكيدات المتناقضة . والشتم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان . واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان احدا الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح سؤالاً يعجزه الجواب عنه . وذلك يلبث دائماً للسامعين . الا أن هذه اللذة لا تدوم طويلاً لان صوت السائل لا يلبث أن يغيب في صخب المعارضين وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئاً مما يجرى في الاجتماعات العمومية ليكون مثلاً على ما تقدم . ( اقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة واسرع القوضيون الى

محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف في وجههم الاشتر اكون فتلاكم الفريقان  
وانهات الشتائم من مشاء • وبائع ذمته • وهكذا وخرج احد الحاضرين وعينه  
موزمة • وانتهى الحال ببقاء اللجنة في مكانها وسط الهياج والاصطخاب •  
وتمت الرئاسة للوطني فلان • واخذ الاشتر اكون يقطعون عليه الكلام وهو  
يحمل عليهم حملة منكرة • فقابلوه بالوعد • قاطع الطريق • الدنيء وهكذا من  
النعوت • فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها أن الاشتر اكين من البله  
أو النصابين

وهذا مثل آخر ( نظم الحزب المنحاز لمانيا مساء أمس في قاعة التجارة  
بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال أول شهر مايو • وتقرر أن يكون  
الهدوء سائداً والسكون شاملاً وقد طعن الوطني فلان على الاشتر اكين بأنهم  
أوغاد نصابون • وعليه تشتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة  
فاشتركت الكراسي والموائد في الخضم الخ )

ولا يحسن القراء ان هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين •  
وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة في كل جمعية  
أياً كانت حتى التي تتألف من مستنيرين • وقد بينت إن الافراد في الجماعات  
يتقاربون الى حد التساوى في ملكات العقل • ونحن نجد الدليل على ذلك في  
كل مكان • اليك ما دار في اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلاً  
عن جريدة الطان الصادرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما أوغل الليل ازداد  
الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون أن يقطع الكلام عليه  
اذ الصراخ كان يعلو في كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات  
هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تستخدم بين السامعين  
فقرى العصي تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة • والاصطخاب مقدوفا  
الى المشوشين • هذا يقول أخر جوه • وذاك يصيح • الى منبر الخطابة ثم قام  
موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما أشد قبجه وجبته •

هذا اجتماع وحشى • ذنى • رذيل • متعصب • ثم أعلن انه سيهدمه الخ )  
 هنا يرد على المخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه  
 الضوضاء • غير ان هذا المخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية  
 التي توجد في المجمع • وان آراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها  
 لا من طريق الاقتناع • والذي يكون الآراء ويجرى الانتخاب في الحالة التي  
 تبحث فيها هي اللجان • واللجان يقودها في الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة  
 على العمال بواسطة تسامحهم معهم في تأجيل ثمن ما يشربون • قال موسيو (شيرر)  
 وهو من اكبر انصار الديمقراطية في الوقت الحاضر « أتعرفون ما هي لجنة  
 الانتخاب • انها عبارة عن مفتاح نظامنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا  
 ان الذي يحكم فرنسا الآن هي اللجان (١) »

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولاً وذا  
 يسار يفي بما يحتاج اليه في مثل ذلك • فنلاثة ملايين فرنك كفت باعتواف المتبرعين  
 أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) في مقاطعات عدة  
 تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أردأ

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادى والشركات هي أشد الجماعات  
 خطراً من حيث المقدرة • فهي التي تمثل أعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها •  
 ولذلك كانت أقسى الجماعات يداً واكبرها تساطاً فلا يشعر القواد الذين يتكلمون  
 بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم • فهم يضربون في كل صوب آمنين •  
 وما كان يخظر على بال أشد المستبدين عسفاً أن يأمر بمثل ما أمرت به اللجان  
 الثورية التي فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس)  
 ظل (روبسيير) قابضاً على الحكم كله بيده طول الزمن الذي كان ينطق فيه  
 باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد في الرأي وانفصل عنها أدركته  
 الداهية • أجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان أعني حكم القواد ولن يهتدى  
 الانسان الى حكم أشد وأقسى •

وعليه فاني لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام • ولوان الامر  
بيدي لا بقيته كما هو لأسباب عملية تنزع من بحثنا في روح الاجتماع • فلنذكرها  
لا يسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس • فلا يمارى  
في ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع  
طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية • وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للامة  
وعظمة المدنية لا تتوقف طبعا على رأى العناصر الوضيعة التي ليس لها من القيمة  
الا كبرة العدد • ومن المحقق أيضاً ان آراء الجماعات خيرة في غالب الاحيان  
فقد كلقتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ما تعده من فوز  
الاشتراكية فمن المظنون ان اهواء سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً  
الا ان هذه المطاعن القوية نظراً تفقد قوتها تماماً من الجهة العملية اذا فكرنا  
في قوة الآراء التي لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة  
الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التي وجدت في القرون  
الوسطى من حيث الضعف في كل غير ان ما كان لهذه من القوة في ذلك الزمان  
هو للاولى في هذه الايام فهي منيعة حينئذ كما كانت أفكارنا في تلك القرون  
لنفرض ان رجلا من أهل الافكار الحرة أى المطلقة السراح وجد في القرون  
الوسطى أتظن انه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة في القوم بعد  
ان يرى ما لها من السيادة المطلقة • او كان يفكر في انكار وجود الشيطان وحرمة  
يوم السبت اذا مثل امام قاض يريد احراقه بالنار بتهمة انه حازب الشيطان أو  
ذهب الى المعبد يوم السبت • انه لا مناقشة مع الجماعات كما انه لا جدال مع  
العواصف • ولعقيدة الاقتراع العام في ايامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية  
في ذلك الزمان • فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقرونا بالتجلة والاحترام  
مصحوبا بما يملق لم يعرفه لويز الرابع عشر • وجب اذن ان يسار معه كما يسار مع  
العقائد الدينية • وللزمان ان يفعل في الجميع فعله على انه لا فائدة من التحفز  
لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها في الظاهر • ولقد أصاب موسيو



(توكفيل) حيث قال « ليس لاحد في زمن المساواة اعتقاد في أحد . لما بين الكل من التشابه . غير ان هذا التشابه يجعلهم يثقون تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورن ان الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين »

قد يذهب بعضهم الى ان حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفآت . أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذي قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتسارون في الجماعة دائماً . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف في مسألة عامة أحسن من رأى أربعين سقاء . ولا أظن ان رأياً أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو ان المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لأن الذي يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معمارياً أو طبيبياً بيظرياً أو طبيبياً أو محامياً . أنظر الى علماء الاقتصاد عندنا تروهم كلهم من المستنيرين وأغلبهم مدرسون أو أعضاء في جمعية المعارف ومنع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبداً كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس الا صورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى امام المسائل الاجتماعية التي لا حصر للجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علماً لانصل الى نتيجة أحسن مما لو تركناه في يد أهل زماننا لان أولئك العلماء يعملون على الأخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم . فلا نكون قد ذللنا شيئاً من العقبات التي أمامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذي تنفرد به الطوائف نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التي للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماً أو محصوراً في طبقة أو طبقات . في جمهورية أو ملوكية . في فرنسا أو البلجيك أو اليونان أو البرتغال أو اسبانيا

ومتوسط المنتخين في كل أمة يمثل روح شعبها . وهو لا يكاد يتغير من  
جيل الى جيل

وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية  
الأخرى المشتقة منها وهي ضعف تأثير المنظمات والحكومات في حياة الامم .  
هذه الامم انما تسير طبقاً لأرواح شعوبها . وبعبارة أخرى طبقاً لما ورثته عن  
آبائها وهو ما تمثله تلك الروح . فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك  
الاحتياجات هي الملوك الخفية التي بيدها زمام ما لنا

## فصل الخامس

### المجالس النيابية

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد في الجماعات  
النيابية - بساطة الافكار - الاتفعال وحدوده - الافكار الثابتة والافكار  
المتقلبة - السبب في ان التردد هو الغالب - شأن القواد - سبب نفوذهم - هم  
الذين لهم الكلمة في المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى رأى عدد محدود  
من الاعضاء - سلطان القواد الشامل - اركان خطابتهم - الالفاظ والصور -  
في ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الآراء وأن  
يكونوا من قصار النظر - في انه يستحيل ان تقبل آراء الخطيب الذي لا نفوذ  
له - غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة او رديئة - في انها تتحرك احياناً بحركة  
نفسية - في جلسات « المتعاهدين - في الاحوال التي لا يكون للهيئة فيها صفة  
الجماعة - تأثير الاختصاصيين في المسائل الفنية - منافع النظام النيابي ومضاره  
في كل امة - في ان النظام موافق لاحتياجات العصر لكنه يؤدي الى تبذير  
الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً - خلاصة الكتاب

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهي تتشابه كثيراً في صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان . ولروح الشعب فيها أثر هو اضعاف تلك الصفات أو تقويتها . الا أنه لا يمنع من ظهورها البتة . وتتشابه المجالس النيابية في البلاد المختلفة كالليونان وايطاليا والبرتغال واسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات

النظام النيابي هو أقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة في العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد في الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو أن العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت في الامور بالعقل والروية والاستقلال والصفات المميزة للجماعات توجد في المجالس النيابية من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير والغلو في المشاعر ونقوذ القواد . الا أن لها بمقتضى تكوينها اخص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

أما بساطة الافكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصاً عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة باسسط المبادئ النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال . ومن الواضح أن المبادئ تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل في الجماعة يرمى دائماً الى تقدير تلك المبادئ باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدي اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التي تمثلها المجالس النيابية هي المتطرفة

واكل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة « اليعاقبة » أيام ثورتنا الكبرى فقد كانوا كلهم من ارباب المذاهب وكلهم من المناطق . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادئ المقررة من غير التفات لظروف الاحوال . فصح ما قيل عنهم من أنهم عبروا الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا أنهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية

جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للأمة قبل تطورها الحالى .  
كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق أحلامهم من أبسط الوسائل .  
فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً  
واحده وان كانوا فرقا شتى

وأما التأثير بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة . والتأثير يأتى من قبل  
القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها الا ان لقابلية المجالس النيابية  
فى هذا الباب حدوداً واضحة يجب ذكرها .

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة بأقليمه لا يمكن زحزحته عنه .  
ولا تؤثر فيه حجة أو دليل . فلو بعث (ديموستين) ما أمكنه أن يقنع عضواً  
بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض أصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك  
لان التأثير الذى وقع عليه أولاً من الناخبين أوجد له رأياً ثابتاً وعطل فيه ملكة  
الاقتناع بما يخالفه . ولعل أحد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم  
فيه كان يشير الى تلك الافكار التى رسخت من قبل فى ذهن كل عضو حتى  
صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال :  
« سمعت مدى خمسين عاماً قضيتها فى (ويستمستر) الاقا من الخطب القليل  
منها حملنى على تغيير رأى ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملنى على تغيير  
صوتى عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة  
وهكذا تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد . لكنه لا يساوى ما لهم فى الجماعات  
الاعتيادية . اذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر .  
فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون . فيقر الواحد منهم على  
أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصاً يهدم المبدأ الذى  
أقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال  
وطردهم . ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثراً بعد عين

وضح مما تقدم ان لكل مجالس في كل دور أفكاراً ثابتة وأخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هي المسائل العامة كان التردد في الآراء هو الغالب لما يجتمع في نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد في المجالس على ان القواد هم أصحاب الكلمة في أغاب المسائل التي ليس للاعضاء فيها رأى ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون في كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين في كل مجلس . لان الرجل في الجماعة لا يستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لا تمثل إلا رأى عدد صغير من أعضائها والقليل من تأثير القواد في تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه أنهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم وهذا النفوذ شخصي لا دخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ما أتى به موسيو ( جول سيمون ) في عرض كلامه في مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذي كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابوليون شيئاً مذكوراً قبل أن يتم له السلطان بشهرين » ارتقى ( فيكتور هيجو ) منبر الخطابة فلم ينل نجاحاً بل سمعه الناس كما يسمعون ( فيلكس بايات ) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لي ( فولاييل ) عن ( بايات ) انه لا يحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا كذلك ( ادجار كينييه ) على عامه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هي المكان الوحيد في الارض الذي يضعف فيه نور الذكاء الفائق . فليس هناك للفصاحة قيمة الا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام الا بالخدم التي أدت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد أكبرت شأن ( لامارتين ) سنة ١٨٤٨ و ( تيير ) سنة ١٨٧١ فما ذلك الا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة ولهذا بعد أن زال الخطر شفي الناس من واجب

## الشكران ومن الخوف معاً

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذي اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً بأحوال النفس . اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما قد يكون أداءه من الخدم للوطن أو للاحزاب على حد سواء . والجماعة انما تطيع قائدها موقنة بسلطان نفوذه فيها من دون أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذي كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتي من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفي لقلب الوزارة وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب في الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ما تساويه وبكوننا لم نضع في مدغشقر الا قدما مترعة . وبكوننا غبنا في مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص في الديار المصرية الا ان نظريات موسيو ( فلان ) قد كلفتنا من الخسائر اكثر من مصائب نابوليون الاول (١) على انه لا ينبغي تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان اكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأي العام . ولم يكن الرأي العام اذا ذاك في المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن . ومن النادر أن يسبق القائد الرأي العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه في الخطأ .

للقائد في اقناع قومه وسائل غير النفوذ هي التي ذكرناها مراراً . ولا بد له في قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذي سمي هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لغير المؤلف رأيه في الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنسية المتربع في رئاسة نظارها ونظارة خارجيتها وله في السياسة العامة مقام كبير (م)

طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم . فينبغي له على الأخص أن يعرف  
 ما لبعض الالفاظ من التأثير الذي يجذب نفوس السامعين وان يكون على جانب  
 من الفصاحة المخصوصة التي تقوم بالتوكيد الشديد الخالي من الدليل وبالصور  
 الأخاذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة في كل مجلس من  
 المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزي الذي هو اكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزي ( ماين ) « من السهل أن نقرأ دائماً مداولات لمجلس  
 العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فمثل هذه الصيغ الكلية  
 تأثير كبير في خيال أهل الديموقراطية المحضة . ومن الميسور على الدوام جعل  
 الجماعة تقبل القضايا العامة اذا قدمت لها بالالفاظ جذابة ولو كانت من القضايا  
 التي لم يحققها أحد . وربما كانت لا تحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك انه لا حد لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة وكما اتينا على  
 بيان قوة الالفاظ والجمال . وما ينبغي أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة .  
 واليك جملة تمثل ما تقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب  
 السياسي الافين والفوضوى السمك ظهر باخرة واحدة تقودها الى منقاهما في  
 الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذي يتحدث فيه الرجلان ويظهر كل واحد منهما  
 لأخيه ممثلاً احدي صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التي يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شعر خصوم الخطيب كلهم  
 انهم مهددون بها . فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤية الباخرة التي تقودهم  
 اليها لانهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم  
 الفزع الذي كان يدخل قلوب ( المتعاهدين ) اذ يسمعون ( روبسيير ) يهددهم  
 بمنجلة<sup>(١)</sup> الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التي لا يجوز في العقل تصورهما فمن  
 ذلك ما اكده الخطيب الذي نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه احد معارضة

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

تذكر من ان ارباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل  
الديناميت . وان مديري الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذي يستحقه  
القوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائماً أثر في الجماعات . ولا يرمى الخطيب  
بالتطرف كيفما بالغ وأكاد كما انه لا حرج عليه وان تعسف في الطعن واشتد  
في الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير في السامعين لانهم أن جنحوا  
للمعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع المجرمين

سادت هذه الفصاحة في المجالس النيابية في كل زمان كما قدمنا وهي تشتد  
في أزمنة الشدة . ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التي كان كبار الخطباء يلقونها  
في مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحيناً لتبحيح  
الجرم وتمداح الفضيلة . ثم تنهمر الشتائم من أفواههم على الظالمين . ويقسمون  
انهم اما أن يعيشوا أحراراً واما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن هم  
جنة . ثم يسكن جأشهم فيجلسون

قد يكون القائد أحياناً ذكياً متعلماً ولكن ذلك يكون مضراً به في الغالب  
لان الذكي يميل الى بيان ما في المسائل من أوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم  
وذلك يؤدي الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة ووحدة العقيدة  
لازمة للرسول . وكان اكبر القواد في الأمم خصوصاً قواد الثورة الفرنسية من  
قصار العقول جداً وكان اكبرهم تأثيراً أشدهم قصرأ في العقل . فان الانسان  
ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو ( روبسبير )  
ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار  
قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على كل لسان . وشقشقة في الفصاحة  
المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعنا في نفس خلوها  
اكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم والدفاع الا ما تعود  
التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله « هل من مبارز » وليس هناك رأى ولا  
تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة . فاذا فرغ القارئ من تلك المطالعة



المملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان) من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله . على انه لا بد لاستجماع ذلك في الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالاهاام يهديها الى معرفة الرجل الذي اودعت فيه قوة العزيمة البنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

انما ينجح الخطباء في المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التي يقيمونها . وأصدق شاهد على ذلك انه اذا وقع لاحدهم ما يفقده نفوذه فانه يفقد معه تأثيره أعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء

وأما الخطيب المجهول الذي يذهب الى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه الا الحجج والادلة فلا رجاء له حتى في الاصغاء اليه . وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو أحد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذي لا نفوذ له في السطور الآتية « اذا استوى - الموصوف - على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقا فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئناً . وهو يفتخر في نفسه بأنه سيثبت عقيدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن أدلته وحررها . وأعد شيئاً كثيراً من الاحصاءات والحجج . وأيقن ان الحق في جانبه . وان معارضة لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التي يأتي بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون الا السجود أمام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتفزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما السبب ياترى في هذا الانصراف العام . وما الذي يدور على السنة أولئك الذين يتحدثون فيما بينهم وما السبب القوي الذي يحمل ذلك على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلق جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء في عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتر . فتزداد الجلبة حواله . ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو

سكوته الى أصوات ( الاقفال الاقفال ) فيرجع الى خطابته بما فيه من قوة .  
وهناك تغلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »  
ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت في الهياج الى  
درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية  
في مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف في القسوة  
اذ ذاك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه  
كل المخالفة

والذي يقرأ تاريخ الثورة الفرنسية يدرك الى أي حد تفقد المجالس شعورها  
وتخضع لما يطلب منها وان خالف أعز المنافع لدى أفرادها كان من أكبر الضحايا أن  
يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعلود غير مترددين ذات ليلة من ليالى  
« الدستورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل  
والدماء ولكنهم فعلوا وما خشوا تقويل بعضهم بعضاً ولا أروهم اعتقاد كل  
واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لاحالة كما يسوق هو اليوم اخوانه اليه غير  
انهم كانوا قد وصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على  
ما وصفنا فلم يعد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدقهم عن اتباع الهوى المتمكن  
من صدورهم اليك ما قاله أحدهم ( بيلوفارين ) مما يوضح ما ذكر « ما كنا نريد  
القرارات التي يلو منا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم  
واحد ولكن المحنة هي التي كانت تملينا » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقد متفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تانين « لقد  
أقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له أشد الجزع ولم يكتفوا في ذلك بالحماقيات  
والجنونيات . بل شرعوا الأثام وقتل الأبرياء واعداد الأصدقاء وانضم حزب  
الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال (دانتون)  
الى المنجلة وكان رئيسه الطبيعي وموجد الثورة وقائد زمامها و مال اليمين الى  
الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد أفضع الأوامر التي أصدرتها

الحكومة الثورية وبين اصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولت ديربوا) و (كوتون) و (روبسيير) جدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصد اصطاح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسيير «

قد يكون الوصف أقم ولكنه الحق الواقع والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالتقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو (سبولر) وهو شورى لايشك أحد فى صدق افكاره الديمقراطيه وصفا دقيقا نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارىء فيه جميع المشاعر المتطرفة التى قدمنا ذكرها وتمثل فيها التقلبات الشديدة التى تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى . قال موسيو (سبولر)

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التى لانهاية لها أوردت الحزب الجمهورى حتفه فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه الا سوء ظنه المطلق . لا يدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى . دعر وآمال لاتنتهى حالتان يستوى فيهما الرينى والطفل فسكونهما يضارع قلقهما . ووحشيتها تماثل طاعتها ذلك شأن المزاج الذى لم يرتب والتربية التى انعدمت . لا يندهشان لامر وكل أمر يفقد الصواب يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة . فيقتحمان النار . ويجفلان من الظل . ويجعلان العلل والمعلولات ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى التهوس . فيهما استعداد للفرع والذهول . ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذى ينبغى أبداً . ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الالوان . ويتشكلان بكل الصور أى رجاء فى حكومة تؤسس

فوقهما»

لكن من حسن الحظ ان جميع الصفات التي أتينا على ذكرها في المجالس النيابية لا تظهر دائماً . لان تلك المجالس لا تكون جماعات الا في بعض الاحايين . والغالب ان كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية ما هو حسن للغاية . نعم ان الذي يضع هذه القوانين انما هو اختصاصي واحد يحضرها في سكون مكتبته وكل قانون أقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولكن القوانين التي وضعت بهذه الكيفية هي أحسن ما يشرع وانما يكون القانون ضاراً اذا أدخلت عليه في الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة ذلك لان صنع الجماعة أخط درجة من عمل الفرد دائماً وفي كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع في الاعمال المضرة التي لا يهدبها الاختبار . فالاختصاصي يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر في المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هي أحسن الوسائل التي اهتمت اليها الامم في حكم نفسها وبالاخص في التخاص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ماعليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهي على التحقيق أرقى أشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التي تتكون منها ذروة الحضارة في الامم على اننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لانزى لها الا ضررين كبيرين . الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه . والثاني الترقى في تحديد الحرية الشخصية فأما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية . فاذا قدم أحد الاعضاء طلباً لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو في الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لا يسع الاعضاء والاخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يهبط الميزانية وينفضى الى تقرير ضريبة

جديدة • اذن يستحيل عليهم الرفض • أما نتائج الزيادة في المصروفات فهي بعيدة ولا تأثير لها في اشخاصهم الا قليلا بخلاف ما لو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف امام الناخبين وما ذلك اليوم ببعيد وهناك سبب قوى آخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطراب لمنح المصروفات المحلية اذا لا يجراً عضو في المجلس على رفض طلبها لكونها في منفعة الناخبين مباشرة • ولانه لا يتمكن من نيل ما يريد له مركزه الا اذا أقر ما يطلبه زملاؤه لمراكمهم (١)

وأما الضرر الثاني وهو التدرج في تقييد الحرية الشخصية تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان أقل وضوحا من الاول • وهو نتيجة القوانين العديدة التي لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماما لبساطة أفكارها ولكونها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليست القوانين الا قيوداً .

(١) ذكرت جريدة (ايكونوميست) في عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التي تتكلفتها تلك المصالح المحلية في سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية فكان كما يأتي : الخط بين (لانجاي) وسكانها (٣٠٠٠) نسمة وهي منزوية في أحد الجبال و (بوى) خمسة عشر مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (براد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين وهكذا . وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التي تقرر انشاؤها في سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروا بوليو) عضو جمعية العلوم ولا يخفى أن استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدي الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك في أوروبا مثل البرتغال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما اصبح قادماً عليه مثل ايطاليا .

والظاهر أنه لا مفر من هذا الخطر لان انكثرتا نفسها لم تتمكن من اتقائه  
مع أن نظامها النيابي اكمل النظمات لأن النائب الانكليزي اكبر النواب استقلالاً  
أمام ناخبيه وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد الى أن الزيادة الظاهرية  
في الحرية الشخصية لا تلبث أن تتبع بنقص حقيقي فيها ثم عاد الى هذه النظرية  
في كتابه الذي سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك  
الحين على النحو الذي أشرت اليه . فما اسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها  
ترمى الى تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد  
أربت على سابقها في كثرة اللوائح التي تلزم الافراد بواجبات كانوا احراراً منها  
وتفرض عليهم أعمالاً كانت مباحة ان شاؤوا فعملوها وان شاؤوا اهملواها . والثاني  
زيادة الضرائب العامة التي يجب على الافراد القيام بها وذلك يجرهم من ثمرات  
كسبهم بقدر ما يزيد في المال الموكول صرفه الى مشيئة الموظفين العموميين »  
وهذا الترقى في تحديد الحريات يظهر في جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها  
(هربرت سبنسر) وهي أن أحداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتماً زيادة عدد  
الموظفين المكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى تفوذهم . ومآل أولئك الموظفين بهذه  
الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لان طائفتهم هي التي لا  
ينالها أثر التقلبات المستمرة التي تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها  
شديدة على قدر ثبوت قدمها في الوظائف فهي الطائفة الوحيدة التي لا تبعه عليها  
من أعمالها ولا شخصية لاحد في مجموعها وهي باقية على الدوام ومن المعلوم  
= الا أنه لا داعي للاهتمام كثيراً بما ذكر لأن الناس قبلوا نقص الفائدة التي تدفعها  
تلك البلاد على ديونها بمقدار أربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهي تقاليس  
محكمة التدبير تسمح لاممها بأصلاح ميزانياتها . على أن الحروب والاشتراكية  
والمزاحمات الاقتصادية تضر لنا مصائب أشد وانكى . وقد دخلنا في زمن  
التفكك والتجمل العام . فعلىنا الرضا بالعيش يوماً بيوم . وان لا نهتم بالغد  
لانه ليس في ملكنا

أن أشد صور الاستبداد هي التي اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث  
 ان الاستمرار على سن هذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتي  
 تحيط بكل حركة من حركاتهم وان صغرت بسور من الاجراآت ( البيزنطية )  
 من شأنه أن يضيق دائرة العمل الذي لا قيد فيه لكن الامم قد خدعت في  
 خيالها فحسبت أن الاكثار من القوانين تؤكد لضمان الحرية والمساواة وصارت  
 تقبل كل يوم قيدياً ثقيلاً

على أنها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل  
 يوم يفضي بها الى تطلبه وفقدان ملكة الاقدام وقتل العزيمة فتصبح حينئذ أترأ  
 بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

وإذا فقد الانسان المقدمات في نفسه اضطر الى طلبها في غيره وكلما ازداد  
 عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة.  
 هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال بأقدامها والقيام مقامهم في الاخذ  
 بيد المشروعات كلها والتدخل في تنظيم سير الافراد دونهم لانهم أضاعوا ملكة  
 ذلك كله — وتصبح الحكومة مكافئة بأن تعمل كل شيء وتدير كل شيء وتحمي  
 كل شيء فتصير آلهة قادراً . الا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الاله  
 لم تكن قوية ولم تدم الا قليلاً

والظاهر أن الترقى في تقييد الحريات عند بعض الامم التي تظن أنها متمتعة  
 بها لما هي فيه من الاطلاق الصوري ناشيء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام  
 كان . وذلك نذير دور الانحطاط التي لم تنج منه مدنية حتى الآن

وإذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التي تبدو من كل صوب  
 حكمنا بأن عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة قد وصل الى اقصى حدود الهرم  
 الذي هو طبيعة الانحطاط والظاهر أنه لا بد لجميع الامم من عبور هذه السبيل  
 لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التي تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذي

نريد أن نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لأسباب قوة الجماعات  
إذا سبرنا المدنيات التي سبقت مدنيتنا في حالتها الرقي والانحطاط فما الذي  
نعثر عليه

نعثر في فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعهم  
غفواً الهجرة والافات والفتوحات ولكونهم اختلفوا في المحتد وتباينوا لغة  
وديناً لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم  
بها . وفي تلك الجماع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بأرقى صورها فلها منها  
الاكتلاف الوقتي . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شيء  
من ذلك . انهم الاقوام متوحشون

ثم دار الزمان فأدى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتكرار التناسل وحاحات  
المعيشة الاجتماعية تؤثر أثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تترج  
بعضها ببعض وتكون شعباً أي تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها  
الوراثة كل يوم هكذا صارت الجماعة أمة وأن لهذه الأمة أن تخرج من دائرة الهمجية  
على أنها لا تخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا  
يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها  
الحصر . وسواء كان المقصد العام الوهية روما أو تعظيم ائتنا أو نصره الله فهو  
يكفي لتوحيد أفكار أفراد الأمة وهي في دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من المنظمات والعقائد والفنون  
وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام  
نعم تعرض له أحوال يكون فيها جماعة الا انه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك  
الموجود القوي أعني روح الشعب فهي التي تقيد تقلباته وتحددها وتضع  
للمصادفات نظاماً مسنوناً

فاذا أتم الزمان صنعه الايجادي يبدأ بصنعه الاعدامي الذي لم ينبج منه عابد  
ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى



وقفت اسرع اليها الأخطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل  
 علامة تلك الساعة التي لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذي  
 اتكأت عليه روح الشعب وكلما ازوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين  
 والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد منه حياتها

كلما ازوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته .  
 وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير أن ذلك يصطبج بحلول الاثرة  
 الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية . ووراءه انطماس الاخلاق . وضعف القدرة  
 على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذي كان يكون امة — أى وحدة وان شئت  
 فقل كتلة — جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطة بينهم الا الجامعة  
 الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات ومتى وصل الناس الى هذه الحال من  
 افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتمام الى طريقة يحكمون بها أنفسهم  
 جدوا في طلب من يقودهم في جميع اعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها  
 وتبتلع كل شيء

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامة . فتعود خليطاً من الناس كل  
 يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليه في بدايتها جماعة لها . منها جميع  
 الصفات الوقتية . فلا شعور . ولا أمل . هنالك تنعدم أساطين المدنية .  
 وتسمى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطنة في الناس . وتبدو طلائع  
 المتوحشين . وقد يلوح على المدنية أنها باقية في بهائها لان محياها لا يزال يضىء  
 بما اكتسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء اكله  
 السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة  
 فمن همجية الى حضارة وراء مقصد في الخيال . ومن حضارة الى ازواء .  
 فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الامم

# فهرست

## صحيفة

مقدمة المعرب	٢
مقدمة المؤلف	٤
تمهيد	٨

# الباب الأول

## روح الجماعات

الفصل الاول	١٦
-------------	----

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفساني

الفصل الثاني	٢٤
--------------	----

مشاعر الجماعات وأخلاقيها

الفصل الثالث	٤٢
--------------	----

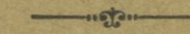
أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

الفصل الرابع	٥٠
--------------	----

الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

# الباب الثاني

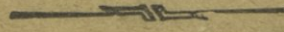
أفكار الجماعات ومعتقداتها



الفصل الاول

٥٥

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وافكارها



الفصل الثاني

٧٢

العوامل القريبة في أفكار الجماعات



الفصل الثالث

٨٤

قواد الجماعات وطرقهم في الاقتناع



الفصل الرابع

١٠٢

حدود تقاب معتقدات الجماعات وأفكارها

# الباقيات

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

١١٣

أقسام الجماعات

الفصل الثاني

١١٦

الجماعات الجارمة

الفصل الثالث

١٢٠

العدول المخلفون أمام محاكم الجنايات

الفصل الرابع

١٢٦

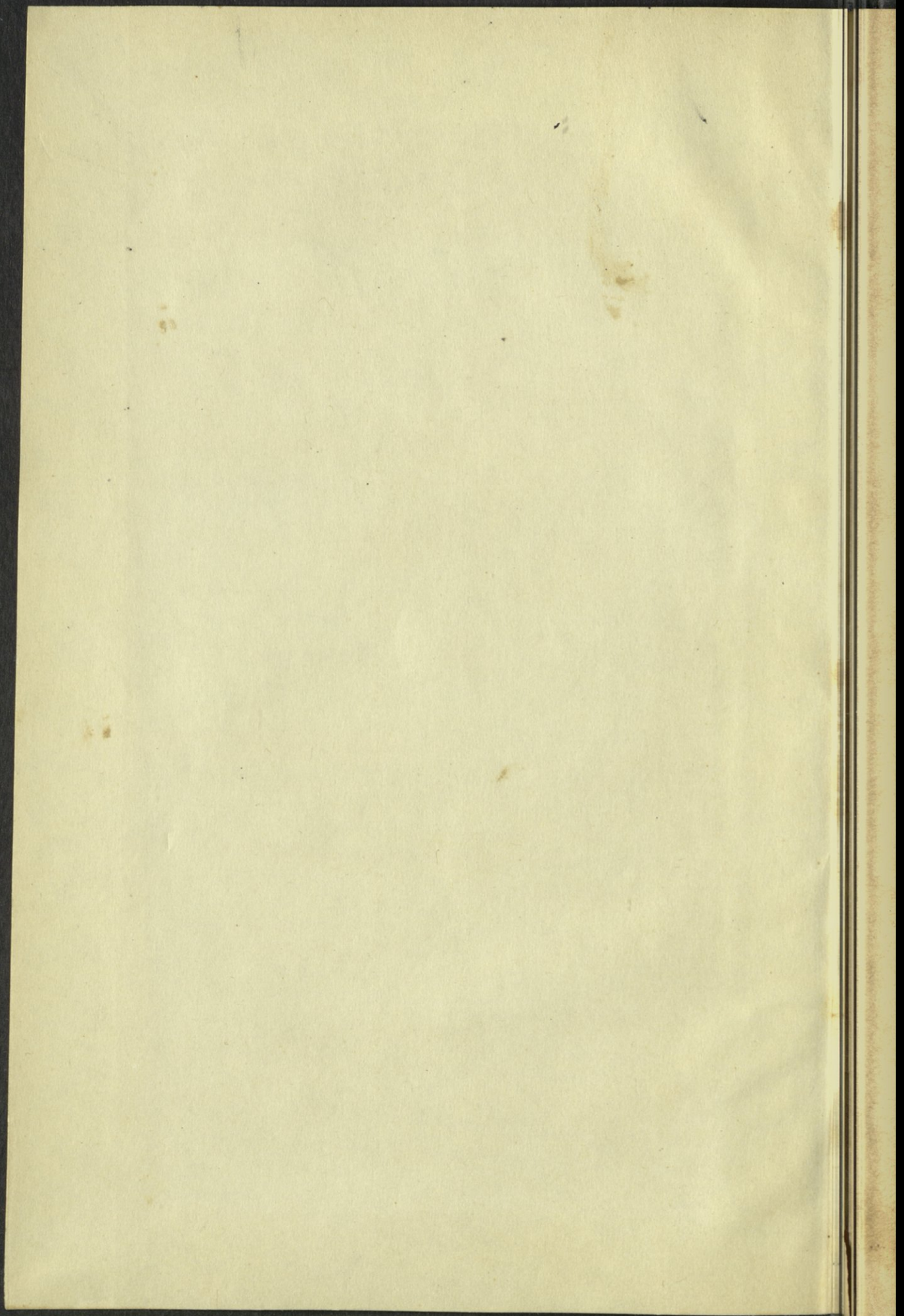
جماعات الانتخاب

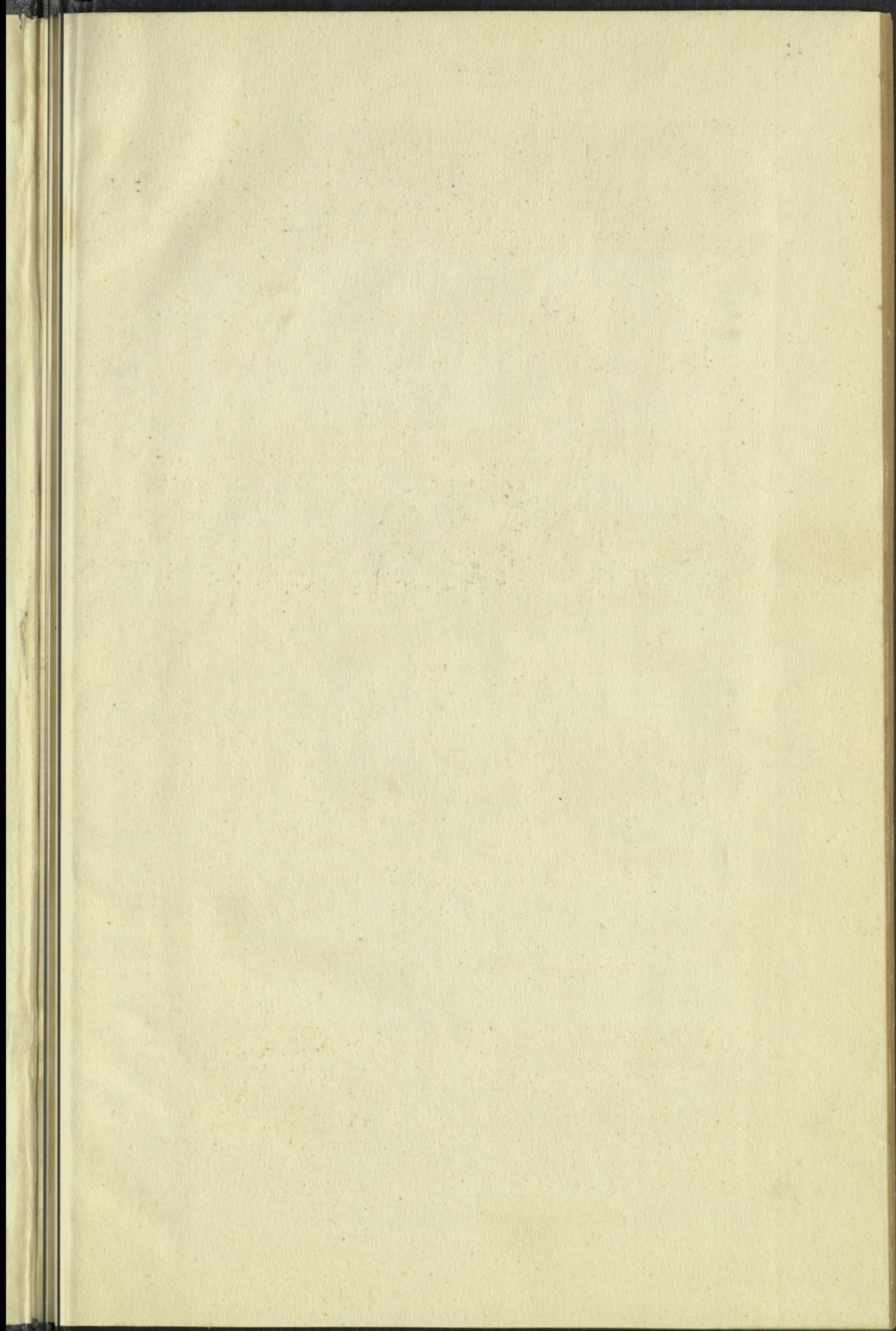
الفصل الخامس

١٣٤

المجالس النيابية

تم الكتاب





لوبيون، غوستاف

روح الاجتماع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011047

American University of Beirut



301

L447 PZA  
1909  
C.1

General Library

301.  
L447p2A  
1909  
C.1